

الفصل الخامس

مادّة الحلم ومصادره

عندما تبين لنا من تحليل حلم حقنة إرما أن الحلم تحقيق رغبة ، اتجه كل اهتمامنا بادئ ذي بدء إلى أن نعرف هل هذه خاصة مشتركة بين الأحلام جميعا ، وفي خلال ذلك أخذنا كل تطلع علمي آخر كان يمكن أن يثار ونحن نقوم بعمل التفسير . ويحق لنا الآن - وقد بلغنا من هذا الدرب نهايته - أن نقفل أدرابنا ، وأن نختار موضعا آخر نبدأ منه استكشافاتنا في مشكلات الحياة الحاملة ، وإن اضطرننا ذلك إلى أن نتناسى بعض الوقت مشكلة تحقيق الرغبة التي لم نزل بعيدين عن استيعابها .

فن الطبيعي - وقد أمكننا بتطبيق منهجنا في التفسير أن نرفع النقاب عن محتوى كامن للحلم تعدو قيمته قيمة المحتوى الظاهر بآماد وآماد - أن تكون المهمة التي تعجلنا الآن هي أن نتناول مشكلات الحلم من جديد واحدة فواحدة ؛ لكي نرى إذا كانت الألفاظ والمتناقضات التي لاحت لنا متعذرة ونحن لا نعرف من الحلم غير ظاهره تلى الآن عندنا حلا مرضيا .

ولقد فصلنا الحديث - في الفصل الذي قدمنا به هذا الكتاب - عن آراء المؤلفين السابقين في علاقة الحلم بالحياة المستيقظة وفي منشأ مادته . وإنا لنذكر هذه الخصائص التي تتميز بها الذاكرة في الحلم والتي لاحظها المؤلفون كثيرا ، دون أن يوضحوا أمرها قط :

١ - أن الحلم يؤثر انطباعات الأيام الأخيرة إثارا ظاهرا (روبرت ، شترومبل ، هيلدبرانت ، ويد ، هالام .)

٢ - أنه يهيج في اختياره على مبادئ تختلف من تلك التي تنتهجها ذاكرتنا المستيقظة من حيث كونه لا يختار ما هو جوهرى وهام ، بل الثانوى وخير الملحوظ .

٣ - أنه يملك استحضار انطباعات ترجع إلى طفولتنا المبكرة ، بل يستعيد من تلك الفترة من حياتنا تفاصيل تبدولنا على جانب كبير من الفهاة ، وكنا نعتقد ونحن

مستيقظون أننا قد نسيناها منذ زمن طويل^(١) .
وغنى عن البيان أن جميع هذه الخصائص التي يتميز بها اختيار مادة الحلم إنما لاحظها
المؤلفون بصدده محتوى الحلم الظاهر وحده .

أ

الحديث والتأفة في الحلم

إذا استرشدت خبرتي الشخصية فيما يتصل بمنشأ العناصر التي تدخل في محتوى الحلم ،
لم أجد مناصاً من أن أقرر ، بادئ ذي بدء ، أنه ما من حلم يخلو من بعض الصلة بأحداث
اليوم الذي انقضى . وما من حلم تناولته بالبحث ، سواء أكان من أحلامي أم كان من
أحلام غيري ، إلا أيد عندي هذه الخبرة الشخصية . وفي مكنتي - وقد علمت هذه
الحقيقة - أن أبدأ تفسير الحلم بالبحث عن حدث اليوم السابق الذي حرك إليه ، بل
تلك في الحقيقة هي الطريق الأقصر في كثير من الحالات . والحلمان اللذان فصلت
تفسيرهما في الفصول السابقة (حلم حقنة إرما وحلم عمى ذى اللحية الصفراء) تتضح فيهما
هذه العلاقة باليوم السابق اتضاحاً لا نحتاج بعده إلى توضيح . ولكنني أورد هنا بعض
الأمثلة أنتخبها من سجل أحلامي الخاصة ؛ لكي أبين كيف يمكن التثبت من هذه العلاقة
على نحو مطرد . ولن أروى هذه الأحلام إلا بالقسط الذي أحتاج إليه من أجل الكشف
عن مصدرها الذي نبحت عنه .

١ - أزور منزلاً لا أستطيع دخوله إلا بعد صعوبات . . . إلخ . ، وفي هذه الأثناء أدع سيده تنتظري

المصدر : محادثه مساء أمس مع إحدى قريباتي : إن عليها أن تنتظر حتى تستلم

سلعاً اشترتها . . . إلخ .

٢ - كتبت بمحاذاة بنوع (غير واضح) من أنواع النبات .

(١) من البين أننا لا نستطيع أن نأخذ بفكرة روبرت القاتلة بأن غاية الحلم هي تخليصنا من الانطباعات
غير النافعة المتخلفة من النهار ، إذا كانت الصور الذكورية المستمدة من طفولتنا تتردد في الحلم أى تتردد ؛
وإلا كان معنى ذلك أن الحلم إنما يقوم بوظيفته تلك على نحو ناقص جداً .

المصدر : رأيت في الضحى بجثا خاصا بفصيحة السيكلامين في عارضة إحدى المكتبات .

٣- أرى في الطريق امرأتين : أما وابنتها ، والأخيرة منهما مريضة من مرضاى .

المصدر : حدثتني البارحة إحدى مريضاتي عن الصعوبات التي تقيمها أمها في طريق استمرارها في العلاج .

٤- أجريت بمكتبة س . اشتراكا في إحدى الدوريات ، وكانت قيمة الاشتراك عشرين فلورين سنويا .

المصدر : ذكرتني امرأتى أمس نهادا أننى لا أزال أدين لها بعشرين فلورين من مصروف الأسبوع الماضي .

٥- تلقيت رسالة من لجنة الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، وفي هذه الرسالة وجه إلى الكلام باعتبارى عضوا .

المصدر : كنت قد تلقيت في وقت واحد رسالتين : إحداهما من اللجنة الانتخابية لحزب الأحرار والثانية من جماعة الإخاء الإنساني التي أنا عضو فيها حقيقة .

٦- رجل يقف على صخرة في عرض البحر على أسلوب بوكلين (١) .

المصدر : دريفوس في جزيرة الشيطان ، وفي الوقت نفسه أبناء من أقاربي المقيمين بانجلترا ، إلخ .

وقد نسأل : ألا تكون صلة الحلم إلا بأحداث اليوم الذى يسبق الحلم مباشرة ، أم هي قد تمتد إلى فترة أطول من فترات الماضي القريب ؟ الراجح أن ذلك سؤال لا ينطوى على كبير أهمية نظرية ، ومع ذلك أرانى أميل إلى الأخذ بأحقية اليوم الأخير (ولنسمه يوم الحلم) أحقية مانعة . فكلما خيل إلى أن مصدر الحلم كان انطبعا يرجع إلى ما قبل الحلم بيومين أو بثلاثة أيام ، أمكننى يا كئيب النظر أن أقنع بأن ذلك الانطباع قد تمثل للذاكرة يوم الحلم ، أى أن استحضارا بيسنا قد وقع في خلال اليوم الذى يسبق الحلم مباشرة فتوسط بين يوم الحدث ووقت الحلم ، وأمكنتنى فوق ذلك أن أبين ما هي المناسبة الحديثة التي ربما كانت السبب في تذكر هذا الانطباع الأقدم . بيد أننى - من جهة أخرى - لم أر ما يقنعنى بوجود أية فترة منتظمة ذات مغزى بيولوجي بين الانطباع النهاري المهيج ورجوعه

(١) [أسلوب بوكلين هو الرومانسية المفرقة ، فالصخور التي أكثر من رسمها محفور تعلوها أليهات البحر وعرائسه في بحر عاصف متلاطم الأمواج ، محفور "فاجنريه" - إن جاز التعبير .]

في الحلم (وكان سفوبودا قد ذكر أن أول فترة من هذا القبيل تستغرق ثمانى عشرة ساعة^(١)). وكذلك أعلن هافلوك إليس الذى أولى أيضا هذه المسألة انتباهه أنه عجز عن أن يعثر في أحلامه على مثل هذا الاستحضار الدورى المنتظم « رغم البحث عنه » . وهو يروى حلما أى فيه أنه يسافر في أسبانيا وبغيته مكان يدعى : داراوس أو فاراوس أو زاراوس . فلما استيقظ عجز عن أن يذكر مكانا له مثل هذا الاسم وصرف النظر عن الحلم . ثم ثبت له بعد ذلك بشهور قلائل أن زاراوس حقيقة اسم لمحطة تقع بين سان سباستيان وبيلباو ، وكان قد مر بها في القطار قبل تاريخ الحلم بمائتين وخمسين يوما .

(١) (١٩١١ :) لقد حاول هرمان سفوبودا - على ما ذكرته في كلمة ألحقها بالفصل الأول (ص ١٢٥) أن يطبق على مجال الأحداث النفسية بوجه عام فكرة الدورات البيولوجية المولفة من ٢٣ و ٢٨ يوما والتي اكتشفها فيلهلم فليس (عام ١٩٠٦) . وهو يؤكد بوجه خاص أن هذه الدورات هي التي تحتم انبعاث العناصر التي تظهر في الحلم . ولو قد ثبت صحة هذا الرأى ، لما غير ذلك من تفسير الأحلام تغييراً جوهرياً ، كل ما هناك هو أننا نكون اكتشفنا بذلك مصدراً جديداً من مصادر مادة الحلم . ومع هذا قمت حديثاً ببحث عدد من أحلامي ؛ بغية التحقق من صدق " نظرية الدورات " عليها ، واخترت من أجل هذا الفرض عناصر حلمية تلتفت النظر بنوع خاص ، أمكن التيقن من تاريخ ظهورها ، في الحياة الواقعة .

١ - حلم ١ - ٢ من أكتوبر ١٩١٠ .

(نبذة) . . . في مكان ما بإيطاليا . ثلاث ابنت يرينى تحفا صغيرة الحجم - كما لو كان ذلك في دكان آثار . وهن جالسات في حجرة . أقول بصدد إحدى القطع : لقد أخذتن هذه منى . وبينما أقول ذلك أرى قناعاً يمثل جانب وجه " سافونزا رولا " بتقاطيعه الحادة .

متى رأيت صورة " سافونزا رولا " للمرة الأخيرة؟ تقول مذكرة رحلاتى : إني كنت بفلورنسا في الرابع والخامس من شهر سبتمبر . وهناك خطر لى أن أرى رفيقى في الرحلة الحفر الذى يحمل ملامح ذلك الراهب المتعصب في [الميدان المسى] Piazza Signoria ، بالبقعة التي لقي فيها الموت حرقاً . وأظن أنى جذبت انتباهه إليه في صباح اليوم الخامس من شهر سبتمبر . فالفترة المنقضية بين هذا الانطباع وبين تكرره في الحلم هي يقيناً : ٢٧ + ١ يوما - وهي مدة " الدورة الأنثوية " على حسب فليس . [لاحظ الخطأ في هذه الحسبة . ولقد وضع ستراشى " الثالث من سبتمبر " بدل " الخامس " ونبه إلى أن " الخامس " خطأ مطبعي ورد في الطبقات الحديثة . ومن شأن تعديله هذا أن يصلح الحسبة ، ولكنه من جهة أخرى لا يستقيم وما ورد من إشارة المذكرة إلى وجود فرويد بمدينة فلورنسا في الرابع والخامس من سبتمبر] . بيد أنى - لسوء حظ القيمة البرهانية التي لذلك المثال - لا أجد بدا من أن أضيف أنه قد اتفق يوم الحلم نفسه أن زارنى زميل قدير لكنه ذو طلمة متقطعة ، كنت ألقبه منذ سنوات " سيدى الحاخام سافونزا رولا " . وقدم لى زميلى مريضاً نكته حادثة فزلت بقطار بوتنبا السريع - وهو القطار الذى كنت سافرت فيه منذ أسبوع - فرجع ذلك بذكرينى إلى رحلتى الأخيرة في إيطاليا . وهكذا نرى أن ورود ذلك العنصر الذى يلفت النظر " سافونزا رولا " في محتوى الحلم تملح زيارة زميلى يوم بينا تفقد فترة العمانية والعشرين يوماً كل مفزاها .

٢ - حلم ١٠ - ١١ من أكتوبر .

أدرس الكيمياء من جديد بمعمل الجامعة . يدعوفى الأستاذ ل . إلى مكان ما ويقودنى في أحد الأوراق ممسكا

وعلى ذلك أعتقد أن لكل حلم حافظا نجده بين تلك الخبرات التي «لم ينقض عليها الليل بعد» .

أمامه بمصباح أو بآلة أخرى رفعها بيده المنتصبه وقد امتد رأسه إلى الأمام هيئة خاصة ، ولاح كن ينظر في نفاذ (؟) (إلى بعيد ؟) . ثم بعد ذلك نصل إلى مكان فضاء ... (نسيت البقية) .

إن أكبر ما يسترعى الانتباه من محتوى هذا الحلم هو الطريقة التي حمل بها الأستاذ ل. المصباح (أو العنسة) أمامه وقد أفضد بصره إلى بعيد . ولم أكن رأيت ل. منذ سنوات متعددة ، ولكنني أدرك على الفور أنه إنما كان شخصا بديلا حل محل آخر يعلوه شأنا ، محل أرشميدس . الذي اذتصب تماثله بالقرب من نافورة أريتوزا ، في سيرا قوسه ، وقد اتخذ تلك الهيئة عينها : مسكاً مرآته المحرقة بيده ، ماداً بصره إلى الجيش الروماني المحاصر . فتي رأيت هذا التمثال للمرة الأولى (والأخيرة) ؟ رأيتُه - على حسب مفكرتي - في مساء اليوم السابع من سبتمبر ، وبين ذلك اليوم ووقت الحلم قد انقضى حقيقة $13 + 10 = 23$ يوماً - وهي "الدورة المذكورة" بحسب فليس . بيد أن من سوء الحظ أننا لا نتعمق تفسير الحلم حتى نرى هذا الاتفاق أيضاً جزواً يفقد من قوته البرهانية . فقد كانت المناسبة التي حفزت إلى الحلم نياً سمته يوم الحلم ، كان مؤداه أن العيادة التي كنت أستضاف للمحاضر بقاعتها قد أوشك فتلها إلى مكان آخر . وقدرت أن المكان الجديد لن يكون إلا بجهة متطرفة جداً وقلت لنفسي : وما الفرق بين ذلك وبين ألا تكون لي قاعة أحاضر فيها على الإطلاق ؟ وكان لزاماً أن ترجع في الذاكرة عند ذلك إلى أيام بدأت حياتي كمحاضر بالجامعة حين كنت حقيقة لا أجد قاعة أحاضر فيها ، وحين لم تكن جهودي من أجل الحصول على قاعة تصادف إلا القليل من ترحيب أساتذة الجامعة وأصحاب كراسيها الذين كان يدهم السلطان . وأذكر أنني ذهبت إذ ذاك إلى ل. - وكان عميداً وقتئذ وكنت أعده حامياً - لكي أشكره إليه حاجتي . فوعدني بالعون ، ثم لم أسمع منه بعد ذلك شيئاً . وهو في الحلم أرشميدس يعطيني Pou sto [مكاناً أقف فيه ، باليونانية] ، ويقودني بنفسه إلى المحل الجديد . فأما أن رغبة الانتقام والشموه بالمعظمة لا يغيبان عن أفكار هذا الحلم - فذلك ما يسهل تخمينه على كل عارف بالتفسير . وإنما الذي أريد أن أقوله هو أن أرشميدس ما كان ليجد طريقه إلى الحلم في هاته الليلة لولا تلك المناسبة . كما أنني لست واثقاً من أن ذلك الانطباع القوي ، الحديث العهد بعد ، الذي أثاره في نفسي تماثل سيرا قوسه - لم يكن يستطيع أن يحدث كذلك أثره في نفسي بعد فترة مختلفة من الزمن .

(٣) حلم ٢ - ٣ أكتوبر ١٩١٠ .

(نبذة) . . . شيء عن الأستاذ أوزر الذي وضع بنفسه قائمة الأطعمة التي يجب أن أتناولها ، وهو ما يدخل على نفسي ارتياحاً كبيراً (وأشياء أخرى نسيت) .

هذا الحلم استجابة بإزاء اضطراب هضمي جعلني أفكر في ضرورة الاتجاه إلى أحد زملائي لكي يقرر نظام التغذية الذي يجب أن أتبعه . وأما كوني قد اخترت لأجل ذلك الغرض الأستاذ أوزر الذي مات في خلال الصيف فيرجع السبب فيه إلى موت مدرس جامعي آخر كنت أعجب به أشد الإعجاب ، وكان موته قبل الحلم بزمن قليل (في الأول من أكتوبر) فتي مات أوزر ؟ ومتى سمعت نعيه ؟ يتضح من الصحف أنه قد مات في الثاني والعشرين من أغسطس . وكنت في ذلك الوقت في هولندا ، وكانت صحف فيينا تصل إلى بانتظام ؛ فلا بد أني قرأت نعيه في الرابع والعشرين من أغسطس . ولكن هذه الفترة لا تتفق وأى من الدورتين : فهي تعادل $7 + 30 + 2 = 39$ يوماً ، وقد تكوّن ٤٠ ، ولست أستطيع أن أذكر أني تحدثت عن أوزر أو فكرت فيه في هذه الأثناء .

وأشكال هذه الفترات التي لا يمكن التوفيق بينها وبين نظرية الدورات دون مزيد من التفنن في الحساب - تفوق في أحلامى كثيراً تلك التي تتفق وهذه النظرية . والإملاء الوحيدة التي أراها ترد بانتظام هي تلك التي تصل الحلم بانطباع من اليوم السابق ، على ما أكدته في النص .

ولا تسفر إذن انطباعات الماضي الحديث (باستثناء اليوم الذى يسبق الحلم) عن علاقة بمحتوى الحلم تختلف فى نوعها من تلك التى لغيرها من انطباعات الزمن الماضى بوجه عام أيا كان بعده . فالحلم قادر على أن يختار مادته من أى فترة من فترات الحياة ما دام ثمة خيط فكري يصل بين خبرة يوم الحلم (أى « أحدث » الانطباعات) وبين سابقاتها .

ولكن لم تُخصت أحدث الانطباعات بهذا الإيثار؟ سوف نصل إلى تكوين رأى فى هذه المسألة إذا أخذنا حلما من الأحلام التى استشهدت بها توا [ص ١٨٧] فحللناه تحليلا أوفى . وعلى ذلك أختار :

حلم المبحث النبأى

كُتبت مبحثا خاصا بنبأ ما . الكتاب مائل أمامى وأنا أدير فى تلك اللحظة صفحة مطوية رسمت فيها لوحة ملونة . ربط فى داخل كل نسخة نموذج مجفف من ذلك النبات ، كأنه مأخوذ من معشب (١) .

التحليل

كنت رأيت فى الصباح كتاباً جديداً فى واجهة إحدى المكتبات عنوانه : فصيلة .
السيكلامين - ومن الواضح أنه كان مبحثا خاصا بذلك النبات .

السيكلامين هو الزهرة المفضلة عند زوجتى . إنى ألوم نفسى على أنى قلما أفكر فى أن آتيا بالأزهار ، مثلما تحب . - وتذكرنى فكرة نسيان الأزهار بقصة سردتها حديثا على جماعة من الأصدقاء لكى أدلل بها على أن النسيان كثير اجدا ما يحمل غرضا لاشعوريا وأنه يمكننا دائما من أن نستتج ما تنطوى عليه نفس الناسى من نيات مستترة . فقد ألقت امرأة شابة أن تتلقى باقة أزهار من زوجها يوم عيد ميلادها . واتفق فى ستة أنها افتقدت هذه الأمانة على الحب ، فطفقت تبكى بدمع غريز . وفيما هى كذلك أقبل زوجها ، فلم يدر سببا لبكائها حتى أخبرته أن ذلك كان يوم عيد ميلادها . فضرب جبينه بيده

(١) [وهو مجموعة الأعشاب الجفيفة .]

وصاح قائلا : إني للأسف ، ولكنني نسيت ذلك كل النسيان . وأراد أن يخرج على الفور لكي يبحث لها عن الأزهار . بيد أنها تأبى العزاء لأنها رأت في نسيان زوجها برهانا على أنها لم تعد تشغل من أفكاره المكان الذي كانت تشغله من قبل . - هذه السيدة ، كانت قد قابلت زوجي منذ يومين ، وأخبرتها أنها في خير حال ، ثم سألتها عنى - وكنت قد توليت علاجها قبل ذلك بسنوات .

ثم ها هي ذى بقية جديدة : لقد كتبت مرة - حقيقة - شيئا أشبه بمبحث خاص بنبات ما ، وكان على التحديد مقالا عن نبات الكوكوة جذب انتباه كارل كولر إلى خصائص الكوكوايين المخدرة [فرويد ١٨٨٤هـ] . لقد أشرت في بحثي الذي نشرته إلى إمكانية استخدام القلوانى هذا الاستخدام ، ولكنى لم أكن من الدقة بحيث أتابع تلك المسألة (١) . وأذكر الآن أن الفكر قد ذهب بي غداة الحلم - ولم أكن وحدت متسعا لتفسيره إلا في المساء - ذهب بي إلى الكوكوايين فيما يشبه أن يكون حلما من أحلام اليقظة . لو أصابتنى الجلوكوما لسافرت إلى برلين وأجريت هناك ، في منزل صديق البرليني [فليس] عملية جراحية على يد طبيب يزكيه صديقي ، دون أن يعلم الطبيب من أنا . وسوف ينوه الطبيب مرة أخرى - وهو لا يدري على من أجرى عملية - بمدى السهولة التي صارت تجرى بها هذه العملية منذ إدخال الكوكوايين ، ولن أبدى في خلال ذلك أقل بادرة تم على أننى قد أخذت في ذلك الكشف بنصيب . وساقى هذا التخيل إلى خواطر تدور حول مدى الحرج الذى يستشعره الطبيب - مهما يكن من أمر - حين يسأل زملاءه علاجا لنفسه . ولكن جراح العيون البرليني لن يعرف من أنا وسيكون فى وسعى أن أنقده أجره مثلما يصنع أى مريض آخر . وألحظ الآن لأول مرة ، بعد أن تذكرت هذا الحلم من أحلام اليقظة ، أنه كان يحتمى وراءه ذكرى حدث بعينه : فقد أصابت الجلوكوما والدى ، فكان أن أجرى له صديقى الدكتور كونجشتاين جراح العيون عملية ، وتولى الدكتور كولر التخدير بالكوكوايين ، ولاحظ كولر بتلك المناسبة أن هذه الحالة قد جمعت الأشخاص الثلاثة الذين أخذوا فى إدخال الكوكوايين بنصيب .

وتذهب خواطرى بعد ذلك إلى المرة الأخيرة التي ذُكرت فيها بقصة الكوكوايين هذه :

(١) [أنظر صفحة ١٤٠ ، ٢٨٠ .]

كان ذلك منذ أيام قلائل حين تلقيت نسخة من كتاب تذكاري أصدره بعض التلاميذ العارفين بالجميل احتفالاً منهم بيوبيل معلمهم ومدير معملهم . وجاء في هذا الكتاب - بين ما أحصى من مآثر المعمل - أن اكتشاف الخصائص المخدرة للكوكايين قد تم هناك على يد كولر . إني أرى الآن فجأة أن حلمي كان يتصل بحدث وقع في المساء : فقد صحبت الدكتور كونيشتاين بالذات إلى منزله ، وأخذت معه في حديث تناول أمراً يلهيني ذكره كلما ورد . وبيننا كنت أتحدث إليه في مدخل البيت أقبل الدكتور جارتنر [ومعناه البستاني] ومعه زوجه الشابة ، فلم أملك إلا أن أنهما على مظهرهما المزدهر . ولقد كان الاستاذ جارتنر أحد الذين حرروا الكتاب التذكاري الذي أشرت إليه توا ، ومن الجائر - إذن - أن يكون قد ذكرني به . ثم إن السيدة ل . التي رويت منذ هنية كيف خاب أملها يوم عيد ميلادها قد عرض ذكرها أيضاً في خلال حديثي مع الدكتور كونيشتاين - وإن يكن قد عرض في سياق مختلف قطعاً .

وأحاول بعد أن أبين كذلك ما هي المحميات الأخرى لهذا الحلم . لقد ضمّن البحث نموذجاً مجففاً من النبات ، كأنه معشب . إن المعشب يقودني إلى ذكرى ترجع إلى أيام المدرسة الثانوية . فقد استدعى ناظر مدرستنا مرة طلبة الفصول العالية وأسلمهم معشب المدرسة لكي يقوموا بمراجعته وتنظيفه ؛ فقد وجدت به بعض الديدان الصغيرة - ديدان كتب . ويبدو أن ناظر المدرسة كان قليل الثقة بقدرتي على المعاونة ، لأنه لم يسلمني إلا ورقات قليلة . ولا أزال أذكر إلى اليوم أن هذه كانت تتضمن بعض الصليبيات (١) . إن العلاقة بيني وبين علم النبات لم تكن قط بالعلاقة الحميمة . وقد حدث وأنا أؤدي الامتحان التمهيدي في علم النبات أني أعطيت أيضاً نباتاً من فصيلة الصليبيات لكي أقول ما هو ، فلم أحر جواباً . ولولا أن معارفي النظرية أسعفتني ، لآلت الأمور معي ما لا سيئاً . ومن فصيلة الصليبيات أنتقل إلى فصيلة المركبات . والخرشوف يدخل بحق في عداد هذه ، وهو الذي أستطيع يقيناً أن أدعوه زهري المفضلة . وكثيراً ما تعود زوجتي من السوق - وهي أكثر كرماً مني - حاملة إلى تلك الأزهار التي أوترها .

أرى المبحث الذي كتبه ماثلاً أمامي . هذا أيضاً يذكرني بشيء . فبالأمس كتب إلى صديقي البصير الذي يسكن برلين [فليس] خطاباً جاء فيه : « إن كتابك عن

(١) [أي من فصيلة النباتات الصليبية .]

الأحلام يشغل حيزاً كبيراً جداً من تفكيرى: إني أراه ماثلاً أمامى وأرأى أدير صفحاته . «
لکم غبطته على قدرته هذه كراء ! لو أنى أيضاً استطعت أن أراه ماثلاً أمامى كاملاً !
اللوحه الملونة المطوية . كنت وأنا أدرس الطب ضحية لدافع لاينى يدفعنى إلى تعلم
الأشياء من طريق الأبحاث المقصورة على موضوع واحد دون غيرها . وكنت على الرغم
من ضيق مواردى أتزود بعدد كبير من منشورات الجمعيات الطبية كانت تخلبنى
لوحاتها الملونة . وكنت أستشعر الفخر بهذا التزوع إلى الاستيفاء . فلما بدأت أنشر
مقالاتى ، لم يكن بد من أن أرسم لوحاتها بنفسى . وأذكر أن إحداها بلغت من الركاكة
مبلغاً حمل زميلاً من أهل الخير على أن يسخر منى . وههنا تحضرنى – لا أدرى كيف –
إحدى ذكريات الطفولة . فقد عن لوالدى مرة أن يعطينى مع كبرى أخواتى كتاباً حوى
لوحات ملونة (وكان يصف رحلة فى بلاد فارس) لكى ندمره – وهو أمر لا يسهل تبريره
من الوجهة التربوية . وكنت أبلغ من العمر إذ ذاك خمس سنوات ولم تكن أختى بلغت
الثلاث . وإن صورتنا ونحن آخذان كلانا – وقد فاض بنا الجبور – فى تمزيق هذا
الكتاب (وأرأى أقول : كانحشوف ، ورقة فورقة) لهى الذكرى الوحيدة التى أذكرها
من هذه الفترة من حياتى فى صورة مرئية . فلما صرت طالباً تكون عندى ولع لا يوصف
يجمع الكتب وامتلاكها ، أشبه بالتزوع إلى دراسة الأبحاث ذات الموضوع الواحد ، أى
هواية مفضلة (وفكرة الهواية المفضلة قد ظهرت من قبل فى صدد السيكلامين والحشوف) .
لقد صرت دودة كتب (أنظر معشب) . وقد كنت منذ أخذت أفكر فى أمر نفسى –
أرجع دائماً هذا الغرام الأول فى حياتى إلى ذلك الانطباع الطفلى ، أو قل : إنى عرفت
فى هذا المشهد من مشاهد طفولتى « ذكرى ستارية » لصداقتى اللاحقة بالكتب . وقد
اكتشفت أيضاً بالطبع منذ تلك السن المبكرة أن غرم المرء كثيراً ما يكون فى غرامه ؛ فقد
كان لى وأنا بالسابعة عشر حساب لا يستهان به عند بائع الكتب دون أن تكون لى القدرة
على سداده . وكان والدى لا يكاد يقبل الاعتذار بأن نوازحى كان يمكن أن تتجه إلى ما
هو شر من ذلك . بيد أن ذكرى تلك الخبرة المتأخرة من خبرات حدائى ترجع بى دفعة
واحدة إلى حديثى مع صديقى الدكتور كونجشتاين : فقد كان مثل ذلك اللوم على إفراطى
فى الجرى وراء هواياتى المفضلة أحد الموضوعات التى تناولها الحديث فى تلك الأمسية التى
سبقت الحلم .

وإلى هذا الحد أقف بتفسير ذلك الحلم ؛ لأسباب لا محل لذكرها ، وإنما أشير محض إشارة إلى الطريق الذى يسلم إليه . لقد تذكرت وأنا أفسر الحلم محادثتى مع الدكتور كونيجشتاين ، وتذكرتها من أكثر من وجهة . وإنى إذ أنظر فى الموضوعات التى دار بها هذا الحديث أرى معنى الحلم يتضح لى . فجميع خيوط الفكر التى تبتدئ من الحلم : الأفكار المتعلقة بأزهار زوجتى المفضلة وأزهارى ، ثم بالكوكايين وبالخرج الذى فى طلب المعالجة بين الزملاء الأطباء ، ثم بإيثارى دراسة الأبحاث المقصورة على موضوع واحد وإغفالى بعض فروع العلم مثل النبات ، كل هذه تسلم فى النهاية - إذا المرء تابعها - إلى فرع من فروع تلك المحادثة المتعددة الشباب . والحلم ينقلب مرة أخرى إلى تبرير ، إلى دفاع عن حقى ، شأن الحلم الذى فسرناه أول ما فسرناه ، حلم حقتة إرما . نعم ، إنه يتابع الموضوع المثار هناك ويناقشه بالإشارة إلى مادة جديدة تجمعت فى الفترة الواقعة بين الحلمين . بل حتى صور الحلم بما اتسمت به من لامبالاة ظاهرية هى أيضاً لهجة ^(١) ؛ إنها تعنى : ومع هذا فأنا الرجل الذى كتب تلك المقالة القيمة ذات الأثر عن الكوكايين ، مثلما كنت أقول من قبل : ومع هذا فأنا طالب مجد لا يترك مجالاً لعائب . وحاصل القول فى الحالتين هو : ومن حتى إذن أن أستبيح ذلك لنفسى . بيد أنى أكتفى من تفسير الحلم بهذا القدر ؛ فما أردت بروايته سوى أن أصور بمثال علاقة محتوى الحلم بخبرة اليوم السابق التى أثارته : ما دمت لا أعرف من ذلك الحلم سوى محتواه الظاهر لم تتضح لى سوى علاقة واحدة للحلم بانطباع واحد من انطباعات النهار ، فأما بعد أن قمت بالتحليل فيظهر مصدر ثان للحلم فى خبرة أخرى من خبرات ذلك النهار نفسه . فأما أول هذين الانطباعين اللذين تعلق بهما الحلم فانطباع يستوى شأنه عندى ، إنه ملايسة ثانوية : أرى فى إحدى العارضات كتاباً يجذب عنوانه انتباهى لحظة ، ولا يكاد محتواه أن يثير منى أقل اهتمام . فأما الخبرة الثانية فذات قيمة نفسية عالية ؛ فقد تحدثت ساعة تامة إلى صديقى طيب العيون حديثاً مشبوحاً ، لمحت فى خلاله تلميحات كان من شأنها أن تصيب كليتنا من قريب ، واستثيرت ذكريات جعلتني أنتبه إلى ما انطوت عليه دخليتى من تهييجات ذات صنوف شتى . أضف إلى ذلك أن

(١) [Akzent - ونقول " لهجة " بالمعنى الذى تكون لهذه الكلمة من خلال استخدامها العامى على الأقل وهو معنى تعبير الصوت عند الكلام ، كما فى قولنا " لهجة التوصل " أو " لهجة التحدى " مثلاً . والمراد بالطبع هو : حتى صورة الحلم لا تخلو من المعنى كما لا تخلو منه " لهجة " الكلام .]

المحادثة قد انقطع جملها قبل تمامها إذ أقبل علينا بعض معارفنا . فما علاقة هذين الانطباعين
النهاريين كلا بالآخر ثم بحلم الليلة التالية ؟

فأما محتوى الحلم [الظاهر] فلا أرى فيه سوى إشارة إلى الانطباع المجرد من القيمة
الخاصة ، وبذا أستطيع أن أؤيد قول القائلين : إن الحلم يؤثر أن يلتقط من
الحياة الواقعة ما هو ثانوي لكي يدرجه في محتواه . وأما تفسير الحلم فكل شيء فيه يقود
على العكس إلى الخبرة الهامة التي أهاجنتني بحق . فلو حكمت على معنى الحلم على النحو
الوحيد الصحيح ، أي بحسب محتواه الكامن الذي أخرجه التحليل إلى الضوء ، رأيت
أنى قد انتهيت على غير توقع إلى كشف جديد ذى خطر . فأنا أرى اللغز المتضمن في
قولنا : إن الحلم إنما يشغل بأشئنا معدومة القيمة في حياة النهار - أراه يتبدد . ولست
أجد كذلك بدا من مناقضة القضية القائلة بأن الحياة النفسية التي نعرفها في اليقظة لا تواصل
في الحلم وأن الحلم - تبعاً لذلك - إنما هو نشاط نفسى ينفق في الصغائر : إن الضد
هو الصحيح ؛ فما يشغلنا في النهار يسيطر أيضاً على أفكار الحلم ، وما نكلف أنفسنا
عناء الحلم إلا بتلك الأمور التي كانت في النهار داعية إلى التروى .

إن أقرب تعليل لكوني أحلم بالانطباع المجرد من القيمة ، في حين أن ما حملني على
الحلم كان الانطباع الذي هاجبني بحق ، هو من غير شك أننا نواجه هنا مرة أخرى ظاهرة
من ظواهر التشويه الحلمى الذى أرجعناه فيما سبق إلى قوة تعمل عمل الرقابة . وفي هذه
الحالة تكون ذكرى البحث الخاص بفصيلة السيكلامين قد استخدمت من أجل الإشارة
إلى حديثي مع صديقي ، مثلما نابت إشارة « السالمون المدخن » في حلم العشاء المعاق
[ص ١٧٢] عن ذكر الصديقة . وسؤالنا الوحيد هو عن الحلقات الوسطى التي مكنت
انطباع ذلك البحث من أن يعمل كإشارة إلى حديثي مع طيبب العيون ؛ فما ثمت من
صلة واضحة للوهلة الأولى بين الطرفين . ففي مثال العشاء المعاق كانت الصلة قائمة
مقدماً : « فالسالمون المدخن » - وهو طبق الصديقة المفضل - كان يدخل من غير
تكلف ضمن طائفة الأفكار التي كان يحتمل أن تثيرها شخصية الصديقة في نفس
الحاملة . وأما في مثالنا الجديد فكل ما هنالك انطباعان منفصلان لا يبدو بينهما للوهلة
الأولى جامع مشترك سوى وقوعهما في ذات اليوم : في الصباح يلفت البحث الخاص
بفصيلة السيكلامين ناظري ، ثم في المساء أتحدث إلى صديقي . إن الجواب الذي يضعه

التحليل بين يدينا هو هذا : إن أمثال هذه العلاقات التي لا توجد من قبل بين انطباعين من الانطباعات تنسج من بعد بين المحتوى الفكرى الذى لأحد هذين الانطباعين وذلك الذى لآخرهما . ولقد جذبت الانتباه من قبل إلى الحلقات الوسطى فى مثالنا هذا بالكلمات التى أبرزتها عند رواية التحليل . فلولا التأثير الذى جاء من جهة أخرى ما أدت فكرة البحث الخاص بفصيلة السيكلامين - فى الأغلب - إلا إلى فكرة أن تلك هى الزهرة التى تؤثرها زوجتى ، وربما ساقى أيضاً إلى باقة السيدة المفتقدة . ولست أعتقد أن تلك الأفكار المستترّة كانت تكفى عندئذ فى أن تستثير حلماً ؛ فكما يحىء فى « هاملت » :

« ولا حاجة بنا ، يا سيدى ، إلى شبح يخرج من قبره
لكى يأتينا بهذا الخبر (١) . »

ولكن انظر ! لقد تذكرت فى خلال التحليل أن الرجل الذى قطع جبل حديثنا كان يدعى جارتنر [البستانى] وأن زوجه لاحت لى مزدهرة ، بل إنى لأذكر الآن وأنا أكتب هذه الكلمات أن الحديث بيننا قد دار برهة حول مريضة من مريضاتى كانت تحمل ذلك الاسم الجميل : فلورا [أزهار] . فلا بد أن الذى حدث هو أن تلك الحلقات الوسطى المنبعثة من دائرة الأفكار النباتية قد وصلت ما بين خبرتى اليوم : المجردة من القيمة والمثيرة . ثم استتبت بعد ذلك روابط أخرى ، وأعنى بها تلك التى كانت تصحب فكرة الكوكابين - وهى فكرة كانت تملك الحق كل الحق فى أن تتوسط بين شخص الدكتور كونيشتاين وبين بحث نباتى كنت قد كتبت - فكان أن وثقت هذه الروابط اندماج كلتا الدائرتين الفكرتين ، بحيث صار من الممكن أن يستخدم جزء من الخبرة الأولى فى الإشارة إلى الثانية .

إنى أتوقع أن يرد البعض هذا التعليل لكونه يحىء اعتباراً أو لأنه مفتعل : فإذا ترى كان يحدث لو أن الأستاذ جارتنر وزوجه المزدهرة لم يقبلا ، أو لو أن المريضة التى جرى الحديث بذكرها لم تكن تدعى فلورا بل آنا ؟ والجواب مع ذلك هين : فلو قد غابت تلك الروابط الفكرية لاتجه الاختيار من غير شك إلى غيرها . وما أسهل لإنشاء أمثال هذه الروابط ! كما يتضح من التوريات والنكات التى يبتدعها الناس كل يوم لكى يلهوا بها : إن سلطان النكتة لا يعرف حدوداً . ونستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول : إنه لو قد تعذر إنشاء روابط كافية بين انطباعى النهار لما خرج الأمر عن

(١) [الفصل الأول ، المشهد الخامس ، السطر ١٢٥ - بالإنجليزية فى الأصل .]

أن يجيء الحلم مختلفاً ؛ كان يجيء انطباع آخر مجرد من القيمة — من قبيل ما يعرض لنا زرافات ثم لا نلبث أن ننساه — فيقوم بالنسبة إلى الحلم مقام « المبحث الخاص » ، فيرتبط بمضمون المحادثة وينوب عنها في محتوى الحلم . ولما كان هذا المبحث دون غيره هو الذى قد خص بهذا القدر ، فعنى ذلك أنه كان من غير شك أنسب الانطباعات لهذا الارتباط . ولسنا بحاجة إلى أن نتعجب مع هانشن سلاو — فى [إحدى لُمع] لستج [المنظومة] — من « أن أغنياء الدنيا وحدهم هم الذين يملكون معظم المال » .

بيد أن العملية النفسية التى بوساطتها تحل الخبرة المجردة من القيمة محل الخبرة ذات القيمة النفسية — على حسب كلامنا — لا يمكن إلا أن تبدو لنا مع ذلك مشارك وحيرة وسوف نعمل فى فصل قادم [الفصل السادس ، قسم ب ، ص ٣١٧ وما يليها] على تقريب خصائص تلك العملية اللامعتولة مظهراً من أفهامنا . وأما فى هذا الموضوع فلنسنا نشلغ إلا بنتيجة تلك العملية التى تدفعنا إلى التسليم بها خبرات لا تحصى ، مطردة الوقوع ، فى تحليل الحلم . بيد أننا نقول الآن : إن العملية تبدو كأن نقلة — أنقول : فى التبرة^(١) النفسية ؟ — تقع على طول الطريق المؤلف من هاته الحلقات الوسطى ، إلى أن تكتسب الأفكار ذات الشدة الضعيفة أصلاً شحنة الأفكار التى كانت مستثمرة فى الأصل استثاراً شديداً ، وبذلك تتمكن من شق طريقها إلى الشعور^(٢) . وأمثال هذه النقلات لا تثير عجبنا على الإطلاق حين يتعلق الأمر بكميات وجدانية أو بوجوه النشاط الحركى عامة : فأن تتحول عانس وحيدة مجبها إلى الحيوانات ، أو أن يصبح الأعزب من المغرمين يجمع الأشياء ، أو أن يندو الجندى بمهجته عن خرقة ملونة ، علمه ، أو أن تطول ضغطة اليد لحظة فتفويض بالعاشق النشوة ، أو أن يفقد مندبل فى « عطيل » فيطلق فقده غضباً عارماً ، كل أولئك أمثلة على النقل لا يجادل فيها . ولكن أن يتقرر أمر ما يدخل الشعور وما يقبض عنه — أى ما تفكر فيه وما لا تفكر فيه — أن يتقرر ذلك على هذا النحو عينه

(١) [Akzent — ويعنى أيضاً رفع الصوت أو خفضه عند النطق بالمقاطع أو العلامات الدالة على ذلك ، من وترجمناه بالتبرة من " نبر " أى رفع صوته بعد انخفاض . ويستخدم هنا كناية عن الشدة أو الأهمية النفسية من حيث أن الصوت يرتفع فى المقاطع التى يراد إبراز أهميتها .]

(٢) [سوف يرى القارئ كيف يحاول فرويد فى الفصل السابع أن يبنى نظرية فى الحياة النفسية تقوم على فكرة " الطاقة " . ومن شأن فكرة الطاقة أن تجر إلى فكرة الاستثمار أى صرف هذه الطاقة واستخدامها فى الأوجه المختلفة . والأفكار المستثمرة استثاراً شديداً هى إذن تلك التى وضعت أو صرفت فيها كميات كبيرة من الطاقة النفسية ، أو المصحوبة بشحنات نفسية كبيرة .]

ووفقاً لتلك المبادئ الأساسية ذاتها - ذلك ما يلوح لنا حدثاً مرضياً ، ونسميه خطأ في التفكير حيثما وقع في حياة اليقظة . وأستبق الأمور هنا بذكر نتيجة سوف نخلص إليها فيما بعد ، فأقول : إن العملية النفسية التي شاهدناها في النقل الحلمى لا يمكن أن تعد اضطراباً مرضياً ، بيد أنها تختلف مع ذلك من العمليات السوية ، ومن الواجب أن نعتبرها عملية ذات طبيعة أكثر أولية [أنظر الفصل السابع ، القسم هـ .]

ونحن - إذن - نفسر كون محتوى الحلم يلتقط آثار الخبرات الثانوية بأنه مظهر من مظاهر التشويه الحلمى (تشويه بالثقل) ، ونذكر في هذا الصدد أننا قد عرفنا في تشويه الحلم أثراً من آثار الرقابة التي تعمل عملها في منتصف الطريق بين نظامين نفسيين [ص ١٦٨] ولهذا نتوقع أن يكشف لنا تحليل الحلم بانتظام عن مصدر حياة النهار الحقيقى ، ذى القيمة النفسية - ذلك المصدر الذى نقلت الثبرة من ذكره إلى الذكرى المجردة من الوزن . ونحن إذ نتصور الأمور على هذا النحو نرانا نعارض نظرية روبرت [ص ١١١] التي تفقد عندئذ كل جدوى بالنسبة إلينا تمام المعارضة . فالواقعة التي توخى روبرت تحليلها واقعة لا وجود لها ، وتسليمه بها يرجع إلى فهم خاطئ ، إلى إخفاق روبرت في أن يستبدل بالمحتوى الظاهر للحلم معناه الحقيقى . واعتراض آخر يمكننا توجيهه إلى نظرية روبرت : فلو كانت مهمة الحلم الحقيقية هي أن يخلص ذاكرتنا بفعل نفسى خاص من « حثالة » ذكريات النهار ، لزم من ذلك أن يكون النوم أكثر عذاباً وأبلغ مشقة من الحياة النفسية المستيقظة ؛ فمن الواضح أن عدد الذكريات المجردة من القيمة التي كان ينبغي عندئذ حماية الذاكرة منها يفوق الحصر : إن الليل بأكمله ما كان ليكني الفراغ من مثل هذا الحشد . والأرجح من ذلك كثيراً هو أن نسيان الانطباعات المجردة من الوزن يتم من نفسه دون أن تتدخل قوانا النفسية في ذلك تدخلا فعالا .

بيد أننا نشعر مع ذلك بما يجذرنا من أن نصرف عن أفكار روبرت دون مزيد اعتبار ؛ فما فسرنا بعد تلك الواقعة ، وأعنى بها : أن انطباعات لا منزلة له من انطباعات اليوم - اليوم الأخير على التحديد - يشارك دائماً في محتوى الحلم . فإن العلاقة بين هذا الانطباع وبين مصدره الحقيقى في اللاشعور لا تقوم منذ البدء ، بل هي - كما رأينا - قد لا تنسج إلا من بعد في خلال عمل الحلم^(١) ، كأنها قد سخرت تسخيراً لتحقيق

(١) [تلك هي المرة الأولى التي يذكر فيها فرويد تلك الفكرة الجوهرية التي يخصص لها الفصل السادس من

هذا الكتاب - وهو أطول فصواه وأهمها جميعاً .]

النقل المستهدف . وعلى ذلك فلا بد أن تمت قوة قاهرة تدفع إلى إنشاء روابط في اتجاه الانطباع الحديث ، المحرد مع ذلك من القيمة ، دون غيره . ولا بد أن هذا الانطباع قد خصص بكيفية يجعله يصلح لهذا الغرض صلاحية خاصة . فلو لا هذا لكان من السهل كذلك أن تنقل أفكار الحلم شدتها إلى عنصر غير هام مما يدخل في دائرة معانيها هي .

إن الملاحظات الآتية قد تعيننا على توضيح هذه المسألة : إذا حمل النهار في طياته خبرتين جديرتين بأن تستثيرا حلماً - أو أكثر من خبرتين - أدمج الحلم ذكر كليهما في كل واحد : إنه يخضع لدافع قهري يدفعه إلى أن يؤلف منهما وحدة . وها هو ذا مثال على ذلك : دخلت في عصر يوم من أيام الصيف عربة قطار فوجدت بها رجلين أعرفهما دون أن يعرف أحدهما الآخر . وكان أحدهما زميلاً كبير النفوذ وكان الآخر وجيهاً من عائلة معروفة كانت تطلب مشورتي الطبية . فعرفت كلا منهما بالآخر ، بيد أنهما ظلّا طيلة الرحلة يتبادلان الحديث من خلالي ، بحيث كان علي أن أتحدث في مختلف الموضوعات مع أحدهما طوراً ثم مع الآخر طوراً آخر . ورجوت من زميلي أن يزكى شاباً يعرفه كلانا ، كان قد بدأ يزاول مهنته كطبيب في ذلك الحين . فأجاب الزميل بأنه واثق أكبر الثقة من كفاءة هذا الشاب ، بيد أنه يعتقد أن مظهره المتواضع لن يجعل نجاحه وسط العائلات الكبيرة أمراً سهلاً . فأجبت : « وهذا عينه هو الذي يجعله محتاجاً إلى توصية » . ثم استدرت بعد ذلك إلى رفيقي الآخر في السفر أستفسره عن صحة عمته - وهي أم إحدى مريضاتي ، وكانت تلزم الفراش إذ ذاك لمرض خطير ألم بها . وفي الليلة التي جاءت في أعقاب تلك الرحلة ، رأيت في الحلم صديقي الشاب الذي رجوت تركيته واقفاً في قاعة أنيقة جمعت كل من أعرف من الأكابر والأغنياء ، وهو يلقي عليهم - ولا شيء ينقصه من مسحة رجل المجتمعات - خطاباً في رثاء السيدة العجوز (التي اعتبر الحلم موتها شيئاً واقعاً) عمه رفيقي الثاني في السفر . (وأعترف بأن العلاقة بيني وبين هذه السيدة لم تكن على ما يرام .) وهكذا عرف الحلم مرة أخرى كيف يقيم الروابط بين انطباعي النهار وكيف يؤلف منهما موقفاً واحداً .

ولست أرى بدا من أن أقرر - استناداً إلى خبرات كثيرة من هذا القبيل - أن عمل الحلم بمخضع لنوع من القسر يدفعه إلى أن يؤلف من جميع المصادر التي تزود الحلم

بمنهاته وحدة واحدة في الحلم . (١)

وأنظر الآن في تلك المسألة : أمن الحتم في كل مرة أن يكون المصدر الحافز إلى الحلم والذي يقود إليه التحليل حدثاً قريب العهد (وذا أهمية) ، أم أن من الممكن أن تقوم بعمل الحافز إلى الحلم خبرة باطنة ، وأعنى بذلك تذكر حدث ذى أهمية نفسية ، أى تفكيراً فيه ؟ إن الجواب الذى نخلص إليه من عدد كبير من التحليلات يؤيد الاحتمال الثانى أقطع التأييد . فالحافز إلى الحلم قد يكون عملية باطنة ، اكتسبت حداثة العهد - إن جاز التعبير - لأن الفكر قد اتجه إليها في خلال النهار . ولقد حان الوقت لكى نجمل الشرائط التى نرى خضوع مصادر الحلم لها .

إن مصدر الحلم قد يكون :

- أ (خبرة حديثة ذات أهمية نفسية تُمَثَّل في الحلم تمثيلاً مباشراً^(٢)) ، أو
 ب (عدة من الخبرات الحديثة الهامة يدمجها الحلم في وحدة^(٣)) ، أو
 ج (خبرة أو أكثر من الخبرات الحديثة الهامة تمثل في محتوى الحلم بذكر خبرة أخرى معاصرة لها لكنها خالية من القيمة^(٤)) ، أو
 د (خبرة باطنة ذات أهمية (ذكرى من الذكريات أو خيطاً فكرياً) تمثل باطراداً في الحلم بذكر انطباع حديث لكنه مجرد من الوزن^(٥)) .
- ومن هذا نرى أن تفسير الأحلام يحقق ذلك الشرط في جميع الحالات : أن يكون أحد مقومات محتوى الحلم تكراراً لانطباع حديث من اليوم السابق . وهذا الانطباع الذى

(١) إن نزوع عمل الحلم إلى أن يدمج في موقف واحد جميع الأحداث ذات الشأن والتي تقع في وقت واحد ، ظاهرة لاحظها مؤلفون عديدون من قبل ، مثل دولاج (١٨٩١ ، ٤١٠) ودلبوف الذى يتحدث في هذا الصدد عما يسميه "rapprochement forcé" [التقريب القهرى] (ص ٢٣٧) . [هذا وقد كانت تلك الفقرة تنتهى بالجملة الآتية التى أضيفت في طبعة ١٩٠٩ ثم حذفت من جديد بعد سنة ١٩٢٢ : " وسوف نصادف في فصل قادم (عن عمل الحلم) هذا الدافع القاهر إلى الإدماج من حيث هو حالة من حالات تكثيف الحلم . - وهو نوع آخر من العمليات الأولية . "]

- (٢) كما في حلم حقنة إرميا وحلم عمى ذى اللحية الصفراء .
 (٣) كما في حلم خطبة الرثاء التى يلقيها الطبيب الشاب .
 (٤) كما في حلم المبحث النباتى .
 (٥) معظم أحلام مرضاى فى خلال العلاج تنتمى إلى هذا النوع .

يتحتم تمثيله في الحلم إما أن يكون داخلاً في دائرة الأفكار التي ينتمى إليها الحافظ الحقيقي إلى الحلم - سواء كجزء جوهري منها أم كجزء غير هام - وإما أن يكون قد أخذ من مجال انطباع لا قيمة له ربطت بينه وبين الأفكار المحيطة بالحافظ إلى الحلم حلقات يزيد عددها أو ينقص . والكثرة الظاهرة في هذه الشروط إنما تتوقف في الحقيقة على هذين الاحتمالين : أن يحدث النقل أو ألا يحدث ، وحرى بنا أن نلاحظ كيف يمكننا هذان الاحتمالان من تعليل كل درجات التباين بين مختلف الأحلام ، بمثل السهولة التي كان كان يتيحها للنظرية الطبية فرض الخلايا الحية المتدرجة من اليقظة الجزئية حتى اليقظة التامة (أنظر ص ١٠٩) .

ونلاحظ بعد ذلك فيما يتصل بهذه الحالات الأربع الممكنة أن عنصراً حديثاً لكنه خال من القيمة قد يستبدل من أجل تكوين الحلم بعنصر نفسى ذى قيمة لكنه غير حديث (سلسلة الأفكار أو الذكري) وذلك على أن يتوافر الشرطان الآتيان : (أ) أن يكون محتوى الحلم على رباط يربطه بنجره حديثه العهد ، (ب) أن يظل الحافظ إلى الحلم عملية نفسية ذات قيمة . ولا يجتمع هذان الشرطان في ذات الانطباع إلا في حالة واحدة ، هي (أ) . فإذا لاحظنا - فوق ذلك - أن الانطباعات المجردة من المترلة والتي يمكن استخدامها في تكوين الحلم طالما ظلت على حداثتها - تفقد هذه الصلاحية إذا ما انقضى عليها يوم واحد (أو بضعة أيام على الأكثر) ، لم يكن بد من أن نخلص إلى أن حداثة الانطباعات في ذاتها تخلع عليه نوعاً من القيمة النفسية تعدل بوجه من الوجوه القيمة التي للذكريات أو للسلسلات الفكرية ذات النبرة الوجدانية . وأما الأساس الذي تنهض عليه هذه القيمة التي تملكها الانطباعات الحديثة فيما يتصل بتكوين الحلم فلن يتضح لنا إلا في سياق مناقشاتنا السيكولوجية التالية^(١) .

هذا ولقد يتجه اهتمامنا بهذه المناسبة إلى تلك الظاهرة ، وهي : أن مادتنا الذكورية والفكرية قد تصيبها تغييرات تقع في خلال الليل دون أن يلحظها الشعور . فمن البين أن النصيحة التي تسدى إلينا بإسلام أنفسنا للنوم ليلة قبل أن نتخذاً قراراً أخيراً في صدد أمر ما هي نصيحة لها ما يبررها . ولكننا ننتقل هنا من سيكولوجية الاحلام إلى سيكولوجية

(١) أنظر ما ورد عن " التحويل " في الفصل السابع [ص ٥٥١ وما بعدها] .

النوم ، ولن تكون هذه هي المناسبة الأخيرة التي نغرى فيها بهذا الانتقال (١) .
غير أن ثمت اعتراضاً يهدد بدفع نتائجنا الأخيرة . ذلك أنه إذا كانت الانطباعات
المجردة من المنزلة لا تشق طريقها إلى الحلم إلا ما دامت على حداثتها ، فكيف يتفق
أن يشتمل محتوى الأحلام كذلك على عناصر مستمدة من فترة سابقة من فترات الحياة ،
لم تكن لها - على حسب كلمات شرومبل - أية قيمة نفسية حتى في إبان حداثة
عهدها ، وكان الواجب - من ثم - أن يعف عليها النسيان منذ زمن بعيد ، أى عناصر
لا هي بالطازجة ولا هي بذات أهمية نفسية ؟

إن في إمكاننا أن نفرغ من هذا الاعتراض فروغاً تاماً إذا استعنا بمكتشفات التحليل
النفسى للعصابيين . والحل الذى تلقاه المشكلة عندئذ هو هذا : إن النقل الذى يبذل
بالمادة ذات الأهمية السيكلوجية مادة أخرى لا قيمة لها (فى الحلم كما فى التفكير على
السواء) قد وقع فعلاً فى تلك الحالات فى هاته الفترة السابقة من فترات الحياة ، ثم نبت
من بعد ذلك فى الذاكرة . فالانطباعات التى كانت مجردة من القيمة فى مبدأ الأمر
لم تعد كذلك منذ أن اكتسبت بوساطة النقل قيمة المادة ذات الأهمية النفسية . وما بقى
بغير أهمية حقيقة لا يمكن استحضاره فى الحلم بعد ذلك أبداً .

ومن المناقشات المتقدمة يستخلص القارئ بحق أننى أذهب إلى أنه لا وجود لحافز
مجرد من القيمة ولا وجود - من ثم - لأحلام بريئة . وذلك هو ما أعنيه بكل صراحة ومن
غير قيد - هذا إذا تركنا جانبا أحلام الأطفال وربما بعض الاستجابات الحلمية

(١) لقد قام بوتسل بعمل هام فى تبيان النسيب الذى يرجع إلى الانطباعات الحديثة العهد فى
تكوين الحلم ، وذلك فى مقال ثرى فى متضمناته (١٩١٧) . فقد قام بوتسل بتجارب كان يطلب فيها إلى عدد
من الأشخاص أن يرسموا ما قد لاحظوه ملاحظة شعورية من صورة تعرض على أعصارهم بوساطة التاخيستوسكوب
[جهاز يستخدم لعرض الصورة فى فترة وجيزة جداً من الزمن] . ثم يعد ذلك كأن يتجه باهتمامه إلى أحلامهم التى
يحملون بها فى خلال الليلة التالية ويطلب منهم مرة أخرى أن يقوموا برسم أجزاء مناسبة منها . وحينئذ كان يتبين
بما لا يقبل الشك أن التفاصيل التى لم يلاحظها هؤلاء الأشخاص ملاحظة شعورية من الصور المعروضة عليهم هى
التى كانت توفر مادة أحلامهم على التحقيق ، على حين لم تكن تتكرر فى المحتوى الظاهر للحلم تلك التفاصيل التى
أدركت إدراكاً شموياً وبجلى بالرسم بعد أن عرضت الصورة . وكانت المادة التى يقتبسها عمل الحلم تعدل بوساطته
على طريقته " التحكية " المألوفة (أو ، على الأصح ، " الأوتوقراطية ") تعديلاً يسخرها لأغراض تكوين
الحلم . وإن المشكلات التى تثيرها تجارب بوتسل لتمدو كثيراً نطاق تفسير الحلم كما نعالجه فى هذا الكتاب . ومع
هذا ينبغي علينا أن نشير بكلمة عابرة إلى مدى الفرق بين هذا المنهج الحديث فى دراسة تكوين الأحلام بالتجريب
وبين الطريقة القديمة الفجة التى كانت تلتخص فى أن تدخل على محتوى الحلم منبهات مزعجة للنوم .

القصيرة إلى أحاسيس يستشعرها المرء في خلال الليل . وأما فيما خلا ذلك فما نحلم به إما أن يكون ذا قيمة نفسية سافرة ، وإما أنه قد شوه فلا نعود نملك الحكم عليه حتى نفسره ، وحينئذ يكشف مرة أخرى أنه ذو قيمة . فالحلم لا يشغل أبداً بالتوافه ، ولسنا ندع نومنا تزعبه الصغائر ^(١) . والأحلام البريئة مظهراً لا يلبث أن يتبين مكرها إذا تجشم المرء عناء تحليلها . وإذا جاز لي أن ألبأ إلى هذا التعبير الجارى ، قلت : إنها ترينا « تحت التبن ماء » . ولما كانت هذه مسألة أتوقع المناقضة في صدها ، وكنت أرحب بكل فرصة تتيح لي أن أفصح تشويه الحلم وهو يعمل عمله — فقد انتخبت من مجموعتي عدداً من « الأحلام البريئة » لكي أقوم بتحليلها .

١

روت شابة ذكية ، مثقفة ، لكنها من أولئك الذين يسود التحفظ مسلطهم ، الذين يشبهون بـ « الماء الساكن » ^(٢) — روت ما يلي : حملت أتى وصلت إلى السوق بعد فوات الوقت ، فلم أستطع أن أخرج بشيء ، لا من الجزائر ولا من بائمة الخضر . حلم برئ من غير شك ، لكن الأحلام لا تكون بهذه البساطة ، فأسألها أن تزيد تفصيلاً ، فتدلى إلى بالرواية الآتية تنهب إلى السوق ومعها طاهيا وهو يحمل السلة . تسأل الجزائر شيئاً ما ، فيقول لها : « لم يعد نيل ذلك في الإمكان » ويعرض عليها شيئاً آخر بدله قائلاً : « هذا أيضاً لا بأس به . » تعرض عنه وتذهب إلى بائمة الخضر ، وتريد هذه أن تبيها نوعاً غريباً من الخضر ربط حزماً ، لكنه كان أسود اللون . تقول الحاملة : « لا أعرف ذلك ، لا أعده . »

إن الحلم صريح الصلة باليوم السابق . فهي — حقيقة — قد ذهبت متأخرة إلى السوق ،

(١) يقول هافلوك إليس — وهو من أرفق نقاد « تفسير الأحلام » — : « وهذا هو الموضوع الذي لا يستطيع الكثيرون منا أن يتابعوا فرويد بعنه . » (١٩١١ ، ١٦٩) . بيد أن هافلوك إليس لم يقيم قط بتحليل أى حلم من الأحلام ، وهو لا يريد أن يصدق كيف يكون من الجور أن يقيم المرء حكمه على محتوى الحلم الظاهر .

(٢) [وهم الذين لا يظهرون شيئاً مما بهم ، وهم مع ذلك الشيء الكثير ، كالماء الساكن لا تظهر حركة على سطحه وهو مع ذلك بعيد النور .]

فخرجت منه خالية الوفاض : كان دكان الجزائر مغلقاً — هذا هو ما يتبادر إلى الذهن كوصف لما حدث . ولكن مهلاً ! أليس ذلك — أو على الأصح ضده — تعبيراً سوقياً يشير إلى نوع بعينه من الإهمال قد يأتيه الرجل في ملبسه؟^(١) أيا كان الأمر فإن الحاملة لم تستخدم هذه العبارة ، ولعلها تجنبت استخدامها . فلنعلم — إذن — على أن نفسر تفاصيل هذا الحلم .

إن كل ما يحمل في الحلم صفة الكلام الصريح ، أى كل ما يقال أو يسمع ولا يقف الأمر عند مجرد التفكير فيه (والترفة ممكنة في معظم الأحيان عن يقين) فهو مستمد من كلام قيل فعلا في الحياة المستيقظة — وإن كان من المفروغ منه أن هذا الكلام إنما يعالج معالجة المادة الخام ، فيقتطع ، ويعدل بعض التعديل ، ويتترع من محيطه بنوع أخص^(٢) . ولنا حين نفسر حلما أن نبدأ بأمثال هذه العبارات المنطوقة ؛ فما هو — إذن — مصدر كلمة الجزائر : إن نيل ذلك لم يعد في الإمكان ؟ أنا المصدر ؛ فقد ذكرت لها منذ أيام قلائل أن أقدم خبرات الطفولة لم يعد في الإمكان نيلها من حيث هي كذلك ، بل تحل محلها في التحليل « التحويلات » والأحلام . وهكذا أكون أنا الجزائر ، وهى ترفض هذا التحويل إلى الحاضر للأساليب القديمة في التفكير والإحساس . وما مصدر قولها في الحلم : لا أعرف ذلك ، لا آخذه ؟ ذلك ما يقتضى التحليل تجزئته . إن « لا أعرف ذلك » كلام قالته هى في اليوم السابق لطاهاها إذ احتدم النقاش بينه وبينها . بيد أنها قد أردفت إذ ذاك قائلة : الزم حدودك ! ومن البين أن نقلا قد وقع في هذا الموضع ؛ فهى لم تدرج في حلمها من الحملتين اللتين وجهتهما إلى طباخها سوى الجملة التى لا خطر منها ، لكن الجملة المقموعة وحدها : « الزم حدودك » هى التى تتلاءم وبقية محتوى الحلم ، إنها الجملة التى يجوز توجيهها إلى رجل خرج عن اللياقة ونسى « دكان جزائره مفتوحاً » . وأما أننا قد وفقنا حقيقة إلى الأثر الصحيح بتفسيرنا هذا فذاك ما يثبت بعدئذ من التجاوب بين هذا التفسير وبين التلميحات

(١) [« دكان الجزائر مفتوح » تعبير دارج في فئتنا معناه : « أزرار البنطلون مفكوكه . »]

(٢) انظر ماسوف يحيى بمصدر الكلام في الأحلام في الفصل الخاص بعمل الحلم [القسم و ص ١٩٠ وما بعدها.]

وليس هناك سوى كاتب واحد يبدو أنه عرف مصدر العبارات المنطوقة في الحلم ، وأعنى به دلبوف الذى يشبه هذه العبارات بال clichés .

الكامنة وراء قصة بائعة الخضر . فصنف الخضر الذى يباع فى حزم (وحزم مستطيلة ، كما أضافت الحاملة من بعد ، وهو إلى ذلك أسود اللون – هذا الصنف ما عساه أن يكون إلا مزيجاً حليماً من الهليون والفجل الأسود ؟ وأما الهليون فلا أظنى بحاجة إلى تفسيره لعارف أو عارفة^(١) . وأما الصنف الآخر من الخضر – وانظر كيف يتحول [اسمه : schwarzer, rett'dich ، أى الفجل الأسود] إلى تلك الصبيحة : Schwarz, rett'dich [اهرب ، يا أسود !]^(٢) – فبيئاً إلى أنه يشير كذلك إلى ذات الناحية الجنسية التى خمنناها منذ البدء حين استشعرنا الميل إلى أن ندرج فى رواية الحلم جملة : كان دكان الجزار مغلقاً . ولسنا بحاجة إلى أن نعرف معنى هذا الحلم معرفة كاملة ؛ فالشئ الثابت هو هذا : أن للحلم معنى ومعنى بعيداً عن البراءة^(٣) .

٢

وها هو ذا حلم آخر برىء لهذه المريضة ، وهو بمعنى ما بمثابة الكفة الأخرى للميزان بالنسبة إلى الحلم الأول : يسألنا زوجها : ألا يبنى علينا أن نضبص أصوات هذا المعزف فتجيبه قائلة : إن الأمر لا يستحق العناء ، فالمطارق محتاجة إلى أن تركب مع الأوتار الصحيحة على أية حال . هذا أيضاً تكرر لحدث حقيقى من أحداث اليوم السابق ؛ فقد سألتها زوجها هذا السؤال وأجابته بمثل هذا الجواب. فما معنى حلمها به ؟ . إنها تقول عن المعزف : إنه قفص يبعث على الاشتزاز ، منكر الصوت ، شئ كان يملكه زوجها

(١) [« نبات ذو قصبان رخصة بها لبن » – عن « أقرب الموارد » .]

(٢) [لاحظ الجناس . وأما كيف يؤيد هذا الجناس الإشارة الجنسية التى يراها فرويد فى اسم هذا النبات فأمر غير بين . ويرجح سترائى هذه المناسبة أن فرويد ربما كان يتحدث هنا وهو يذكر لفرأ من الألفاظ المصورة التى كانت دائمة أكبر الذبوع فى مجلات ذلك العصر الهزلية وبخاصة مجلة : Fliegende Blatter أو " الصحائف الطائرة " . وسوف يرد ذكر هذه المجلة وذكر ألقابها المصورة فى مواضع شتى من هذا الكتاب .]

(٣) أقول لمن أراد العلم أن هذا الحلم يخفى وراءه تخيلاً مداره فى أسلك مسلكتاً منافياً للأدب ، منظوياً على استفزاز جنسى ، وأنها تصد هذا المسلك من جانبى . فإن بدا هذا التفسير شيئاً بعيد عن التصديق ، ذكرت القارىء بالحالات التى يرى فيها الأطباء أنفسهم هدفاً لاتهامات من هذا القبيل من جانب نساء هستيريات لم يظهر هذا التحليل عندهن مشوهاً فى صورة حلم ، بل يظهر ظهوراً شعورياً سافراً فى صورة هذائبة – [١٩٠٩ :] وقد كانت الحاملة فى بدء تحليلها حين أتتها هذا الحلم ، ولم أعلم إلا فيما بعد أنها إنما كانت تكرر بهذا الحلم الصدمة الأولى التى كانت منشأ عصابها . ومنذ ذلك الحين وأنا ألحظ هذا المسلك عينه من جانب أشخاص كانوا فى طفولتهم ضحايا لمثل هذه المحاولات الجنسية ثم صاروا الآن كأنهم يلتصون تكرارها فى أحلامهم .

من قبل الزواج^(١) ، الخ . بيد أن مفتاح الحل إنما يكمن في قولها : إن ذلك لا يستحق العناء . فهي قد استمدت هذه الكلمات من زيارة قامت بها في اليوم السابق لإحدى صديقاتها ، ودعتها الصديقة إلى أن تترع سترتها ولكنها أبت قائلة : شكراً ، ولكن الأمر لا يستحق العناء ؛ فأنا ذاهبة بعد قليل . وبينما كانت تقص على ذلك تذكرت أنها في خلال جلسة التحليل بالأمس قد أمسكت بسترها فجاءة ؛ فقد انفك أحد ازارها . وهكذا تكون كمن أرادت أن تقول : أرجو ألا تلتفت ، إن الأمر لا يستحق العناء . وبذا يكتمل القفص فيصبح : القفص الصدري ، ويعود بنا تفسير الحلم دفعة واحدة إلى زمن نضجها الجسمي في خلال المراهقة ، حين بدأت تشعر بقله رضاها عن هيئة جسمها . بل إنه ليقودنا إلى أزمنة تسبق ذلك كثيراً إذا اعتبرنا « يبعث على الاشمئزاز » و « منكر الصوت » ، وإذا تذكرنا في هذا الصدد كيف يكثر في التلميح وفي الحلم أن يحل نصفاً الكرة الأصغر من جسم المرأة محل النصفين الأكبرين - على سبيل التقابل أو التبديل .

٣

وأقطع هنا هذه السلسلة من أحلام تلك المريضة بإيراد حلم قصير ، برىء ، أثاره شاب في مقتبل العمر : فقد رأى أنه يرتدى معطفه الشتوي من جديد ، وكان ذلك شيئاً مروعاً . إن السبب الظاهر لهذا الحلم هو هجوم البرد هجوماً مفاجئاً . بيد أننا نلاحظ إذا أنعمنا النظر أن الحزئين القصيرين اللذين تركب منهما هذا الحلم لا يستقيمان كلا والآخر : إذ ما هو « المروع » في ارتدائك في البرد معطفاً ثقيلًا أو سميكا؟ إن من سوء حظ براءة هذا الحلم أن أول ما يحضر ذاكرة الحالم في أثناء التحليل هو أن سيدة قد أسرت إليه البارحة بأن الفضل في حياة ولدها الأخير يرجع إلى تمزق الحجاب المانع للنسل . فقد أجرى الحالم أفكاره بما يتفق وما سيع : الحجاب الرقيق خطر ، لكن السميكة ردىء . ولقد تمثل الحجاب بحق في صورة « المعطف » ؛ فكلاهما يُعْتَطَفُ . ولا شك في أن حادثة من قبيل ما أفضت به السيدة قد كانت تكون شيئاً « مروعاً » بالنسبة إلى رجل أعزب . ولكن لنعد الآن إلى حاملتنا البريئة .

(١) وهو ما ينطوي على إبدال للصد بالضد كما سيتضح من تفسير الحلم .

إنها تضع شمعاً في الشمعدان ، ولكن الشمعة تنكسر فلا تنتصب كما ينبغي . وتقول رفيقاتها في المدرسة : إنها غير حاذقة . بيد أن المدرسة تقول : إن الذنب ليس ذنبها .

إن لهذا الحلم أيضاً مناسبة من الحقيقة . فهي — حقيقة — قد وضعت البارحة شمعة بالشمعدان ، إلا أن هذه الشمعة لم تنكسر . وقد لجأت الحاملة إلى رمز شفاف : فالشمعة موضوع يهيج أعضاء المرأة الجنسية ، وانكسارها بحيث لا تنتصب كما ينبغي يعنى عجز الرجل الجنسي (« إن الذنب ليس ذنبها ») . ولكن أتعرف السيدة الشابة هذا الاستعمال للشمعة ، وهي التي نشئت تنشئة ملؤها العناية وظلت بمنأى عن كل قبيح ؟ لقد اتفق أنها كانت قادرة على أن تبين كيف بلغ ذلك علمها : فهي كانت تركب نهر الراين يوماً حين مر بهم قارب علته جماعة من الطلبة استخفهم الطرب فرفعوا عقائرهم بأغنية ينشدونها — أو بالأحرى تصايحوا بها — هي : « عندما تقف ملكة السويد ، خلف مصراع النافذة المغلق ، وهي بشموع أبوللو . . . »^(١)

إن السيدة لم تسمع الكلمة الأخيرة [المحذوفة] أو سمعتها فلم تفهمها . ولا بد أن زوجها قد أدلى إليها بالإيضاح المنشود . وقد استبدلت بهذه الأبيات في محتوى الحلم ذكرى بريئة تتعلق بعمل كلفت به المريضة وهي لا تزال بالمدرسة فلم تحذق أداءه ؛ لأن مصراع النافذة كان مغلقاً — وهو العامل المشترك الذي يسر التبديل . وأما العلاقة بين فكرتي الاستمناة والعجز الجنسي فواضحة بما فيه الكفاية . و « أبوللو » المتضمن في المحتوى الكامن لهذا الحلم كان حلقة وصل بينه وبين حلم سابق تمثلت فيه [الآلهة] بالاس العذرية . كل هذا بعيد في الحقيقة عن البراءة .

ولكى لا نخال أن الاستدلال بالحلم على الحياة الحقيقية للحالم أمر جم السهولة ،

(١) [أبيات من أغنية معروفة من أغاني الطلبة . « وشموع أبوللو » اسم لنوع من الشموع . وأما الكلمة المحذوفة فهي onanirt أى « تستنى » .]

أضيف حتماً آخر - ظاهره البراءة أيضاً - من أحلام تلك السيدة . قالت : لقد حملت بشيء صنعته بالأمس حقيقة ؛ فقد رأيت أنني أملاً خزانة صغيرة بالكتب حتى تعذر على إغلاقها ، وكان ما حملت به هو الذي قد حدث حقيقة . في هذا المثال ينصب معظم إلحاح الحاملة نفسها على الاتفاق الذي بين الحلم والحقيقة . وإن كل ما يعنى في صدد الحلم من أمثال هذه الأحكام والملاحظات - وإن حلت في الفكر المستيقظ - إنما يكون دائماً ، في الحقيقة ، جزءاً من محتوى الحلم الكامن - كما سوف تؤيده الأمثلة فيما بعد [ص ٤٤٥] . والذي تحدثنا به الحاملة - إذن - هو أن الحدث الذي يصفه الحلم قد وقع حقيقة بالأمس . وإن المطاف ليبعد بنا كثيراً لو أردنا أن نروى كيف خطر لنا أن نستعين باللغة الإنجليزية في تفسير هذا الحلم . يكفي أن نقول : إن الأمر يدور من جديد حول box صغير (أنظر حلم الطفل الميت في الصندوق ، في ص ١٧٨) ، امتلاً حتى تعذر أن يدخله بعد ذلك شيء . وما من شائنة - إذن - في هذه المرة على الأقل .

ومن البين في جميع هذه الأحلام « البريئة » أن العامل الجتسمى هو الدافع إلى الرقابة بيد أن ذلك موضوع ذو أهمية رئيسة يجب أن ندعه جانباً .

ب

مادة الطفولة

من حيث هي مصدر من مصادر

الحلم

قلنا - متفقين في ذلك مع كافة المؤلفين إلا روبرت - : إن ثلاثة الخصائص التي تميز محتوى الحلم هي أن الحلم قد تظهر فيه انطباعات ترجع إلى حياة الطفولة الأولى ، انطباعات تلبو بعيدة عن متناول الذاكرة في اليقظة . ومن الصعب بطبيعة الحال أن نقرر (١٤)

إلى أى حد ينذر ورودها أو يكثر ؛ ما دمنا لا نعرف بعد اليقظة مصدر عناصر الحلم . فالبرهان على أن الأمر يتعلق في هذا الحلم أو ذاك بانطباع مستمد من الطفولة يجب أن يؤسس على شهادة موضوعية ، وهو أمر لا تتيحه الفرص إلا نادرا . ومن الأمثلة الفريدة الدلالة على ذلك قصة مورى [المذكورة فيما سبق ، ص ٥٦] عن الرجل الذى اعترم أن يزور مسقط رأسه بعد غيبة دامت ما ينيف على العشرين عاماً : فقد حلم الرجل فى الليلة السابقة على الرحيل بأنه فى مكان لا عهد له به على الإطلاق وأنه يلتقى فى الطريق هناك برجل لا يعرفه ويتحدث إليه ، فلما عاد إلى وطنه تاح له أن يقتنع بأن المكان المجهول موجود حقيقة على مقربة من بلده ، وأما رجل الحلم الغريب فصديق من أصدقاء والده المتوفى لم يكن لا يزال على قيد الحياة بذاك المكان . وذلك من غير شك دليل على أنه قد رأى فى طفولته كلا الرجل والمكان . والحلم بعد ذلك حلم ينبغى إدراجه بين أحلام الصبر النافذ ، كحلم الفتاة التى كانت تحمل تذكرة الحفل الموسيقى فى جيبها [ص ١٧٦] ، أو حلم الطفلة التى وعدا أبوها برحلة إلى الضيعة [ص ١٥٥] ، إلى آخر ذلك . فأما الدوافع التى جعلت الحالم لا يستحضر من طفولته إلا تلك الانطباعات دون غيرها - فأمر لا يتبين بالطبع من غير تحليل .

وأخبرنى أحد المستمعين إلى محاضراتى - وكان يفخر بأن أحلامه قلما يصحبها التشويه - بأنه قد حلم منذ زمن غير بعيد بأنه يرى مدرسه الخاص القديم راقداً فى سرير واحد مع المريبة التى ظلت بمنزلهم حتى الحادية عشرة من عمره . وحضره فى الحلم أيضاً مكان ذلك المشهد . وأثار كل هذا فى نفسه فضولا شديداً ، فقص الحلم على أخيه الأكبر الذى أكد له ضاحكاً صدق الحلم ؛ فهو - أعنى الأخ الأكبر - يذكر ذلك تمام الذكرى ، فقد كان عمره ، إذ ذاك ستة أعوام : كان من ذأب العاشقين أن يسكرا الأخ الأكبر بالجنة كلما هيات لهما الفرصة أن يجتمعا ليلا ، وأما الأخ الأصغر - حاملنا الذى كان يبلغ إذ ذاك الثلاثة أعوام وكان ينام مع المريبة فى غرفة واحدة - فلم يكن يعد خطراً .

وثمت حالات أخرى يسهل علينا فيها أن نقطع باحتواء الحلم على عناصر مستمدة من حياة الطفولة دون استعانة بتفسير الأحلام . وذلك إذا كان الحلم مما يسمى بالأحلام المتكررة عن قدم ، أى إذا كان حلماً يأتي صاحبه للمرة الأولى وهو ما زال طفلاً ثم

يعاوده بعد ذلك في الرشد من حين إلى حين . وأستطيع أن أضيف إلى الأمثلة المعروفة على هذا النوع من الأحلام أحلاماً قليلة جمعتها ، وإن لم أكن قد وقع لي قط حلم متكرر من هذا القبيل : فقد قص على طبيب في العقد الرابع من عمره أن أسداً أصفر اللون كان يتراءى له كثيراً في أحلامه منذ عهد طفولته إلى يومنا هذا ، وكان في استطاعته أن يصفه أدق الوصف . ثم جاء يوم فإذا هو يكتشف هذا الأسد الذي عرفه من حلمه متجسماً في صورة لعبة من الخزف عني عليها الدهر . وحينئذ علم الشاب من أمه أن هذا الأسد كان لعبته المفضلة في طفولته ، وإن لم يعد يذكر شيئاً من ذلك .

وإذا تركنا المحتوى الظاهر للحلم إلى أفكاره الكامنة التي لا تنال بغير التحليل ، أدهشنا أن نرى أثر خبرات الطفولة في أحلام ما كان محتواها ليدعونا قط إلى مثل هذا الظن . وأدين لزيملي المبجل ، صاحب « الأسد الأصفر » ، بمثال على ذلك فريد في لطفه ودلالته النظرية . فقد أتاه — بعد أن قرأ وصف نانزنس لرحلته القطبية — حلم رأى فيه أنه في حقل من الجليد يعالج هذا المستكشف المقدام علاجاً كهربائياً لنوبة ألمت به من مرض عرق النساء ! وبينما كنا نحلل الحلم تذكر قصة من طفولته لولاها لظل الحلم مستغلقاً على الفهم كل الاستغلاق : ذلك أنه — وهو طفل في الثالثة أو الرابعة — كان يصغى يوماً إلى حديث دار بين من يكبرونه حول رحلات الاستكشاف حين سأل والده : أذلك مرض خطير ؟ وكان جلياً أنه قد خلط كلمة « رايزن » [رحلات] بكلمة « رايسن » [تشنجات] ، وتكفلت سخرية إخوته وأخواته بالأنا تترلق تلك الخبرة الخزية إلى النسيان .

وإنا لئرانا إزاء مثال شبيه بذلك كل الشبه حين أعر وأنا أحلل حلم المبحث الخاص بفصيلة السيكلامين على إحدى ذكريات طفولتي : ذكرى والدى حين جعلني — وأنا في الخامسة — أمزق كتاباً زين بلوحات ملونة . وقد نتشكك في أن تكون تلك الذكرى قد أخذت حقيقة بنصيب ما في تشكيل محتوى ذلك الحلم ، ونرجح أن يكون التحليل هو الذي أوجد هذه العلاقة من بعد . ولكن غزارة الروابط الاستدعائية وتشابكها يضمنان صحة وجهة النظر الأولى : السيكلامين — الزهرة المفضلة — الطبق المفضل — الخرشوف ، تمزيق كتمزيق الخرشوف ورقة فورقة (وهي جملة كانت تطرق أسماعنا كل يوم بمناسبة تمزيق الامبراطورية الصينية) ، المعشب — دودة الكتب التي تجد في الكتب

غذاءها المفضل . ثم إنى أستطيع أن أؤكد للقارئ أن المغزى الأخير لذلك الحلم - وهو مالم أفض به ههنا - كان متصلاً أوثق الاتصال بمضمون ذلك المشهد الطفلى .

ويرينا التحليل فى طائفة أخرى من الأحلام أن الرغبة التى أثارت الحلم فعلا ، والتى صور الحلم تحقيقها - قد تفرعت عن حياة الطفولة ، حتى أن المرء يدهش إذ يرى الطفل باندفاعاته وهو ما زال حياً فى الحلم !

وفى هذا الموضع أستأنف تفسير حلم سبق أن خرجنا منه بجديد ، وأعنى به حلم : صديقى ر . هو عمى [ص ١٦٢ وما يليها] . لقد مضينا فى تفسيره إلى أن تبين لنا فى جلاء أن الرغبة فى أن أرقى إلى منصب الأستاذية كانت إحدى الرغبات الدافعة إليه ، وعللنا الحنان الظاهر فى الحلم تجاه صديقى ر . بأنه كان نتاجاً أملتته معارضتى ومدافعتى للمطاعن الموجهة فى أفكار الحلم نحو زميلى . ولقد كان الحلم حلمى ، ولى - إذن - أن أتابع تحليله بأن أقول : إننى وقد انتهيت من حله إلى هذا المدى لم أشعر بالرضا بما انتهيت إليه . فقد كنت أعلم أن حكمى المستيقظ على الزميلين اللذين أسأت إليهما فى الحلم كل هذه الإساءة كان حكماً مختلفاً كل الاختلاف ، وكان سلطان الرغبة فى ألا أشاركهما مصيرهما فيما يتصل بمسألة الترقية بيدولى أضعف من أن يفسر هذا التناقض بين التقديرين : تقدير اليقظة وتقدير الحلم . فلو أن احتياجى إلى أن ألقب بلقب مختلف كان شديداً إلى هذا الحد ، لكان ذلك دليلاً على طموح مرضى لا أعده فى نفسى وأعتقد أنه بعيد عنى . ولست أدرى ما هو حكم الغير ، ممن يعتقدون معرفتى ، فى هذا الصدد . ربما كنت طموحاً حقيقة . ولكن إذا كان الأمر كذلك ، فهذا الطموح قد انصرف منذ أمد بعيد إلى موضوعات أخرى غير لقب الأستاذ المساعد أو منصبه .

من أين - إذن - أتى الطموح الذى ألهمنى هذا الحلم ؟ هنا تحضرنى قصة كثيراً ما سمعتها تحكى فى طفولتى : ذلك أنه اتفق حين ولدت أن تنبأت فلاحه عجوز لأمى السعيدة بوليدها الأول بأنها قد أتت إلى الدنيا برجل عظيم . ولا شك أن أمثال هذه النبوءات شىء كثير الوقوع : فكلم فى الدنيا من أمهات آمالات وكم فيها من عجائز فلاحات - أو غير فلاحات - ممن هجرتهن قواهن الدنيوية فتحولن جهة الغيب ! ثم إن المنتبئة لن تضيرها النبوءة . أياكون ذلك هو النبع الذى منه كان ظمئى إلى العظمة ؟ ولكننى أذكر

هنا انطباعاً آخر يرجع إلى ما أعقب من سنوات حدثي ، انطباعاً يزودنا بتعليل أفضل : فقد حدث ذات مساء في مطعم في [حديقة] براتر اعتاد والداي أن يصطحباني إليه وأنا غلام في الحادية أو الثانية عشرة من عمري أن جذب انتباهنا رجل كان ينتقل من مائدة إلى أخرى مرتجلاً لقاء هبة صغيرة أبياتاً من الشعر في أي موضوع يعرض عليه . وأُرسلت في طلب الشاعر إلى مائدتنا ، فأبدى شكره للرسول ، وقبل أن يسألنا أي موضوع اخترنا ألقى ببضعة أبيات عنى ، ثم أعلن في غمرة الإلهام أنني على الأرجح صائر في يوم من الأيام « وزيراً » . وما زلت أذكر أحسن الذكرى أي انطباع أحدثته هذه النبوءة الثانية في نفسي . لقد كانت تلك أيام وزارة الطبقة المتوسطة^(١) ، وكان والدي قد أحضر إلى المنزل منذ قريب صور أولئك الأقطاب البورجوازيين : هربست وجيسكرا وأونجر وبرجر وغيرهم ، وكنا قد أشعلنا الأنوار تكريماً لهؤلاء السادة . بل لقد بلغ من الأمر أن كان بينهم يهود ؛ فكان يهياً لكل غلام يهودى مجتهد أنه يحمل كرسي الوزارة في حقيبه المدرسية . ولا بد أن الانطباع الذى تخلف في نفسى من ذلك العهد قد كان له أثره في أنى بقيت إلى ما قبل التحاقى بالجامعة بزم قصير وأنا أنوى أن أدرس القانون ، ولم أعدل إلا في اللحظة الأخيرة . ومن اشتغل بالطب صدت دونه أبواب الحياة الوزارية من غير رجعة . ونعود الآن إلى حلمى : إننى ألحظ للمرة الأولى أنه ينتقل بي من الحاضر المحزن إلى أيام الوزارة البورجوازية المليئة بالأمال المرحة ، وأنه يبذل ما وسعه من أجل أن يحقق ما كنت أرغب فيه إذ ذاك : فأنا إذ أسىء إلى زميلى العالمين الجليلين إلى هذا المدى لأنهما يهوديان ، وإذ أعد أحدهما أبله وأعد الآخر مجرماً — أسلك كأنى كنت الوزير : لقد وضعت نفسى في موضعه . ياله من انتقام حاسم من صاحب المعالى ! إنه يرفض ترقيتى أستاذاً مساعداً ، وأنا أرد له الكيل بأن أضع نفسى مكانه .

وأمكننى أن ألحظ في حالة أخرى أن الرغبة التى تثير الحلم — وإن تكن رغبة حاضرة — قد لقيت مع ذلك تعزيزاً قوياً من ذكريات امتدت جنورها بعيداً في الطفولة . وأنا أفكر هنا في طائفة من الأحلام كان أساسها الحنين إلى زيارة روما . ولسوف أمكث زمناً طويلاً وأنا مكره على أن أرضى هذا الشوق بوساطة الأحلام ؛ ففي هذا الفصل من

(١) [Burgerministerium] - وزارة كانت لها آراء من قبيل الآراء المتوارثة عن أحزاب الأحرار ،

انتخبته بعد وضع الدستور النمساوى الجديد عام ١٨٦٧ .

العام الذى أتمكن فيه من الترحال يتحتم على أن أتجنب الإقامة فى روما لأسباب صحية^(١). وهكذا رأيت مرة فى الحلم أنى أنظر من نافذة عربة قطار إلى نهر التيبر وجسر سانت أنجلو، ثم يأخذ القطار فى الحركة، فيخطر لى أنى لم أطأ المدينة قط. وكان المنظر الذى رأته فى الحلم مقتبساً عن رسم معروف وقع عليه بصرى برهة فى حجرة جلوس أحد مرضاى. وفى مرة أخرى يقودنى قائد إلى قمة تل ويرينى منه روما وقد تلفعت بالضباب نصف تلفع وبعدت بعداً سحيقاً حتى لأعجب معه من وضوح منظرها. ومحتوى الحلم أكثر ثراء مما أستطيع روايته، ولكن من السهل أن نستشف فيه فكرة «أرض الميعاد وهى تلوح من بعيد». والمدينة التى رأيتها للمرة الأولى على هذا النحو، ملفعة بالضباب، كانت: لوبك، وأما التل فقد رأيت أعمدجه فى - جلا يخنرج. وفى حلم ثالث أرانى أخيراً فى روما - على ما حدثنى به الحلم - بيد أنى - لخيبة أملى - أرى منظرًا لا يشبه المدن فى شىء، أرى: نهيراً حلك مائه وحملت إحدى ضفتيه صفوراً سوداء وانتشرت على الأخرى مراغ انتشرت فيها أزهار كبيرة بيضاء، ثم لاحظت رجلا يدعى السيد تسوكر (وهو رجل لى به بعض المعرفة) وأعقد العزم على أن أسأله عن الطريق المؤدية إلى المدينة. وجلى أنى كنت أحاول عبثاً أن أرى فى الحلم مدينة لم أرها فى حياة اليقظة قط. وإنى إذ أجزئ مشهد الحلم إلى عناصره أرى الأزهار البيضاء تعود بى إلى مدينة رافنا التى أعرفها والتى احتلت مكانة روما كعاصمة لإيطاليا - بعض الزمن على الأقل. ففى المستنقعات المحيطة برفنا وجدنا أجمل الزنابق المائية نامية فى الماء الأسود. وكنا نكابد العناء فى اقتطافها من الماء، فجعلها الحلم تنبت فى المرعى، مثل النرجس فى آوسى. وأما الصخرة السوداء القريبة ذلك القرب من الماء فتذكرنى تذكراً شديداً بوادى التهل، على مقربة من كارلسباد. وتمكننى الآن «كارلسباد» من أن أفسر تلك اللحمية العجيبة، وأعنى بها سؤالى السيد تسوكر عن الطريق: إن المادة التى نسج منها الحلم قد تضمنت فى هذا الموضوع قصتين من تلك القصص اليهودية، الممتعة، المنطوية على علم عميق بأحوال الدنيا، هو فى غالبية الأحيان مرير، والتى يطيب لنا كثيراً أن نستشهد بها فى

(١) [١٩٠٩ :] لقد تعلمت منذ ذلك الحين أن تحقيق الرغبات التى يظل المرء زماناً طويلاً وهو يعتقد امتناعها إنما يحتاج إلى قليل من الشجاعة. [١٩٢٥ :] ومنذ هذا الحين وأنا من حجاج روما المواطنين على زيارتها. [سوف يلمح القارئ من هذه الأحلام مدى الأهمية النفسية التى كانت ترتبط فى نفس فرويد بفكرة زيارة مدينة روما، وهو أمر يتضح فى مواضع كثيرة من رسائله إلى فليس. هذا وقد حقق فرويد تلك الرغبة للمرة الأولى فى صيف عام ١٩٠١.]

أحاديثنا ورسائلنا . وأما الأولى فهي قصة « البنية » ، وهي تروى كيف يدلف يهودى مسكين إلى قطار كارلسباد السريع دون تذكرة ، ثم يفتضح أمره ، ولا يمر المفتش للمراجعة إلا طرده من القطار وزاد إغلاظاً إليه ، ثم يلتقى به صديق في إحدى محطات سكة الأوجاع هذه ، فيسأله عن وجهته ، فيجيبه : « إلى كارلسباد - إذا احتملت بنيتي »^(١) . وتنتقل ذاكرتي إلى القصة الثانية ، وهي تدور حول رجل يهودى لا يعرف الفرنسية ، كلف أن يسأل في باريس عن شارع ريشليو . وقد كانت باريس أيضاً هدفاً لأشواقى سنوات طويلاً . والسعادة التى أحسستها وأنا أنزل قدى على رصيفها لأول مرة قد لاحت لى بشيراً بتحقيق أمنيات أخرى . ثم إن السؤال عن الطريق كان إشارة مباشرة إلى روما ؛ فإلى روما تذهب كل الطرق كما نعلم . وكذلك اسم تسوكر [أى سكر] : إنه يشير من جديد إلى كارلسباد ؛ فن عادتنا أن نرسل إلى هذا البلد مرضى السكر ، وهو مرض مرده البنية . ولقد كان الحافظ إلى هذا الحلم اقتراحاً من صديق البرليني [فليس] بالالتقاء فى براج ، فى خلال عيد الفصح . وكان بين الموضوعات التى كان مفروضاً أن نتحدث فيها موضوع له رباط آخر « بالسكر » « وبمرض السكر » .

ويعود بى إلى روما من جديد حلم رابع تلا الحلم السابق بزمن قليل : رأيت أمامى ناصية طريق ، وأدهش لكثرة ما أراه من اللافتات المكتوبة باللغة الألمانية . وكنت فى اليوم الذى سبق هذا الحلم قد كتبت إلى صديقى أخبره - وكأما كنت أقرأ الغيب - أن براج لن تكون بالمكان الذى يدخر لسائح المانى إقامة طيبة . وهكذا يعرب الحلم فى آن واحد عن الرغبة فى ملاقاته صديقى فى روما بدل ملاقاته فى مدينة بوهيمية ، ثم عن الرغبة فى أن تحظى اللغة الألمانية بمزيد من التسامح فى براج - وهى رغبة ترجع فى الأرجح إلى أيام التلمذة . ولا بد أننى كنت أفهم اللغة التشيكية فى السنوات الأولى من طفولتى ؛ فقد ولدت بمدينة صغيرة فى موارثيا وسط شعب سلاوى . ولقد سمعت مرة وأنا فى السابعة عشرة من عمري بيتا من الشعر الذى يغنى للأطفال ، فعلق البيت فى ذاكرتى دون ما جهد منى حتى أننى لأستطيع ترديده إلى اليوم - وإن كنت لا أدرك شيئاً من معناه . وهكذا لا تخلو هذه الأحلام أيضاً من روابط تربطها بطفولتى الأولى .

(١) [يشير فرويد إلى هذه القصة فى كثير من رسائله إلى فليس : رسالة ٥٤ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٣٠ ،

مثلاً . وهو فى الرسالتين الأخيرتين يستخدم روما و كارلسباد رمزاً للأهداف التى لا تدرك .]

وكان في خلال رحلتى الإيطالية الأخيرة التى حملتنى إلى ما وراء بحيرة تراسيمن أننى اكتشفت في النهاية - بعد أن رأيت التير وقفلت راجعاً على مضض وأنا على ثمانين كيلو متر من روما - كيف تعزز شوقى إلى المدينة الخالدة بانطباعات حدثتى . فقد كنت أفكر في رحلة تحملنى في العام القادم إلى نابولى مارا بروما حين خطرت لى تلك الجملة التى لا أشك في أننى قرأتها في نص من نصوصنا المأثورة^(١) : « إنه لسؤال : أى الرجلين كان أنفد صبرا وهو يذرع الحجر طولا وعرضاً بعد أن قر قراره على الذهاب إلى روما : وكيل ناظر المدرسة فينكلمان أو القائد الأعظم هانيبال ؟ » نعم ، إننى في الحقيقة كنت أفقو خطى هانيبال . فقد كتب على ، مثلما كتب عليه ، ألا أرى روما . وهو أيضاً قد توجه إلى كامبانيا حين كان العالم أجمع ينتظره في روما . ولكن هانيبال الذى انعقدت بينى وبينه تلك سيئة كان بطل الأثير وأنا ما زلت بالمدرسة . فشاعرى ، شأن الكثير من الغلمة بتلك السن . قد انحازت في حروب قرطاجنه إلى جانب القرطاجنيين وليس إلى جانب الرومان . ثم حين أخذت أدرك في سنوات المدرسة الأخيرة ما يجره على المرء انبأؤه إلى جنس غريب ، وحين نهتئ مشاعر العداء السامى بين الأقزان إلى أننى لم يعد لى مفر من أن أتخذ لى موقفاً - حينئذ زاد أيضاً شخص القائد السامى علوا في ناظرى . فهانيبال وروما كانا يرمزان في عين الصبي للصراع بين عناد اليهودية ونظام الكنيسة الكاثوليكية . ومنذ ذلك الحين وحركة العداء السامى لا تريد آثارها في حياتنا الانفعالية إلا خطورة ، فأعان ذلك على تثبيت أفكار تلك الأيام المبكرة وأحاسيسها . وهكذا صارت رغبة الذهاب إلى روما في حياتى الحاملة ثوباً ورمزاً تكتسبها رغبات أخرى أشد احتداماً ، رغبات يقتضى تحقيقها بذل الجهد بكل دأب القرطاجنى وبكل عزوفه عما ليس من قصده ، وإن بدا في الحاضر أن تحقيقها لن يلقى من مواتاة القدر إلا ما لاقته الرغبة التى صاحبت هانيبال في حياته جمعاء ، رغبة الدخول في روما .

والآن أعثر لأول مرة على خبرة الحداثة التى ظلت تعرب إلى اليوم عن سلطانها في كل هاته الانفعالات والأحلام . ربما كنت في العاشرة أو في الحادية عشرة من عمرى حين بدأ والدى يصطحبنى في نزهاته ويكاشفنى في أحاديثه بنظراته في أمور هذا العالم الذى نحيا فيه . وهكذا حدثنى مرة بالقصة الآتية لكى يرينى كم تفضل الأيام التى

(١) إن الكاتب الذى قرأت عنده هذه الجملة لا بد أن يكون - من غير أدنى شك - جان بول .

ولدتُ بها أيامه ، قال : كنت وأنا شاب أتتزه في يوم سبت في شوارع البلد الذي ولدتُ به وقد لبست لباساً حسناً ووضعت على رأسي قلنسوة من الفراء وإذا مسيحي يقبل فيضرب بقبعتي في الوحل ، صائحاً : أيها اليهودى انزل عن الرصيف ! - فسألت والدي : وماذا فعلت ؟ - فأجابني في هدوء : نزلت إلى عرض الطريق والتقطت القلنسوة . لقد بدا لي ذلك مسلماً مجرداً من البطولة إذ يصدر عن الرجل الضخم القوى الذي كان يقودني ممسكاً بيدي - أنا الولد الصغير . وقارنت هذا الموقف الذي لم يرضني بأخر أكثر تلاؤماً ومشاعري ، قارنته بالمشهد الذي فيه يستحلف هاميلكار باركاس^(١) - أمام مذبح العائلة - ابنه هانيبال إلا أن يأخذن بالثأر من الرومان . ومنذ ذلك الحين وهانيبال يحتل مكاناً بين تخاييلي .

وأظنني قادراً بعد على تأثر هذه الحماسة للقائد القرطاجني إلى عهد أقدم من عهود طفولتي ؛ بحيث لا يخرج الأمر هنا أيضاً عن أن يكون تحويلاً إلى حامل [أي موضوع] جديد لعلاقة عاطفية متكونة من قبل . فقد كان من أوائل الكتب التي وضعت بين يدي وأنا طفل حديث العهد بالقراءة كتاب تيير « تاريخ القنصلية والإمبراطورية » . وما زلت أذكر كيف ألصقت بالظهور المسطحة لجنودي الحشوية قصاصات من الورق تحمل أسماء القواد الإمبراطوريين ، وأذكر أن ماسينا (باليهودية : منشا) كان بطلي المفضل إذ ذاك^(٢) . (وهو تفضيل يفسر أيضاً من غير شك بكوني قد ولدت في ذات التاريخ ، قرناً بعده) .^(٣) ونابليون خليفة هانيبال ؛ لعبوره جبال الألب . وربما أمكن أن أتبع نشأة هذا المثل الأعلى الحربي إلى زمن أقدم من طفولتي : إلى علاقتي في خلال السنوات الثلاث الأولى من حياتي بولد يكبرني بعام واحد ، وإلى المشاعر التي لا بد قد أثارها في نفس أضعف الرفيقين تلك العلاقة التي كانت طوراً صداقة وطوراً حرباً^(٤) . وكلما تعمق المرء تحليل أحد الأحلام ، زاد عثوره على آثار خبرات الطفولة التي كان لها نصيبها بين مصادر المحتوى الكامن لهذا الحلم .

(١) [١٩٠٩ :] جاء هذا الاسم في الطبعة الأولى على تلك الصورة : هاسدروبال . وهو خطأ عجيب فسرته في كتابي : سيكوباتولوجية الحياة اليومية (١٩٠١ ب ، الفصل العاشر) .
 (٢) [١٩٣٠ :] وأشير عرضاً إلى أن الأصل اليهودي لهذا القائد موضع شك .
 (٣) [أضيفت هذه الجملة عام ١٩١٤ .]
 (٤) [سيتحدث فرويد عن هذه العلاقة كثيراً فيما بعد .]

وقد علمنا من قبل (ص ٥٩-٦٠) أنه يندر غاية الندرة أن يستحضر الحلم الذكريات الاستحضار الذى يجعلها تؤلف - دون أن ينالها اقتضاب أو تحريف - كل المحتوى الظاهر للحلم . ومع هذا فهناك أمثلة على ذلك لا يتطرق إليها الشك . وفى استطاعتى أن أضيف إليها بضعة أمثلة أخرى تتعلق من جديد بمشاهد مستمدة من الطفولة . فقد اتفق مرة أن واجه الحلم أحد مرضاى باستحضار كاد يخلو من التشوية لواقعة جنسية تبين على الفور أنها ذكرى صادقة . والحقيقة هى أن هذه الذكرى لم تضع قط من حياته المستيقظة كل الضياع ، ولكنها غمضت غموضاً شديداً وكان بعثها أثراً من آثار العمل الذى تم من قبل فى خلال التحليل . فالحلم كان قد ذهب وهو فى الثانية عشرة من عمره ليزور رفيقاً من رفاق المدرسة لزم الفراش حين تعرى هذا الرفيق تعرياً جاء فى أغلب الظن عفواً بحركة فى فراشه . فلما رأى المريض أعضاء الولد التناسلية وليه نوع من الدافع القهري ، فعرى نفسه وأمسك بعضو الولد الآخر الذى نظر إليه مستنكراً دهشاً ، فأسقط فى يده وخلقى . وقد أعاد الحلم هذا المشهد بعد ذلك بثلاثة وعشرين عاماً ، وأعاده بكل المشاعر التى صاحبته ، إلا أنه عدلّ بحيث أخذ الحلم الدور السلبي بدل الإيجابي ، بينما استبدل برفيق المدرسة شخص معاصر .

والقاعدة المستيقنة هى أن مشهد الطفولة لا يرد فى محتوى الحلم الظاهر إلا تلميحاً ، ولا معدى عن استخلاصه من الحلم بالتفسير . والأمثلة على ذلك لا تحمّل روايتها كبير إقناع ؛ فليس ثمت فى معظم الأحيان شاهد آخر على وقوع خبرات الطفولة هذه : إنها - وقد وقعت فى سن مبكرة جداً - لا ترجع الذاكرة تعرفها . وإن حقنا فى أن نستدل عامة بالأحلام على وقوع مثل هذه الخبرات إنما يخلص من خلال العمل التحليلي من جملة من العوامل تبدو خليقة بالركون إليها من حيث اتفاقها فيما بينها . فإذا انتزعت هذه الإشارات الراجعة إلى خبرات الطفولة من محيطها بغية تفسير الحلم ، كان من المحتمل الا تترك إلا تأثيراً قليلاً ، وبخاصة إذا كنت لا أذكر مرة واحدة كل المادة التى يستند إليها التفسير . بيد أننى لن أدع ذلك يردنى عن رواية بعض الأمثلة .

بين مريضاتي مريضة تمتاز أحلامها جميعاً بذلك الطابع : وهو كون الحاملة تظهر « مُعجَلة »^(١) . فهي تعجل لكي تصل في الميعاد، أو تعجل لثلا يفوتها القطار ، وهكذا . وفي أحد أحلامها رأت أنها تتأهب لزيارة إحدى صديقاتها وقالت لها أمها أن تذهب راكبة لاماشية ، ولكنها تنطلق جرياً ولا تكف في أثناء ذلك عن الوقوع . - لقد مكنتنا المادة المنبعثة في سياق التحليل من التعرف على ذكريات تتصل بهياج الأطفال (ونعلم ما يسميه أهل قيينا « هيجة »^(٢)) . وأشار أحد أحلامها بخاصة إلى تلك المزحة التي يحبها الأطفال كثيراً ، وهي أن يكرروا جملة : « جرت البقرة حتى وقعت » بسرعة شديدة حتى تبدو الجملة كأنها كلمة واحدة - وهو أيضاً ضرب من « الجرى » . وقد استحضرت الذاكرة كل هذا الجرى البريء بين الصديقات الصغيرات ؛ لأنه كان يخفي وراءه ذكريات أخرى أقل براءة .

وها هو ذا حلم ثان لمريضة أخرى : إنها في حجرة كبيرة انتصبت فيها آلات من كل نوع ، شئ أشبه بما كانت تتخيله عن أحد معاهد تقويم الأجسام . وتسمع أنفي لا وقت عندي وأنه لا معنى لها عن أن تقبل معالجتها في وقت واحد مع خمسة آخرين . ولكنها تأبى وتمتنع عن الرقود في السرير المخصص لها - أو في الشيء الذي ظهر على أنه السرير ، أياً كانت حقيقته . وتقف في الركن وتنتظر أن أقول لها : إن ذلك غير صحيح . وفي هذه الأثناء يضحك منها الآخرون ، قائلين : إنه دلالها الممهود . - في الوقت نفسه : كأنما كان عليها أن ترسم مربعات كثيرة صغيرة .

يرتبط الجزء الأول من هذا الحلم بالعلاج وبتحويلها مشاعرها إلى . وأما الجزء الثاني فينتوى على إشارة إلى مشهد من مشاهد الطفولة . ووصل بين الجزئين ذكر السرير . فعهد تقويم الأجسام يرجع إلى حديث لي قارنت فيه العلاج من حيث مدته وطبيعته بعلاج

(١) [من فعل zu hetzen ويعنى عجل ، وجرى وراء الصيد أو طرد وعلى سبيل المجاز اضطهد ، ثم

هيج وأثار .]

(٢) [eine Hetz وهو الحفل المرح الحافل بالاستشارة الذي يترك كل مشترك فيه لنفسه العنان .]

يستهدف تقويم الجسم . ولقد اضطرت عند ابتداء علاجها إلى أن أخبرها أنني لا أستطيع أن أخصص لها في الوقت الحاضر إلا وقتاً قليلاً ، واكتفى سوف أفرغ لها ساعة كاملة كل يوم فيما بعد . وحرك ذلك حساسيتها القديمة التي هي سمة يتميز بها الأطفال المهيأون للهستريا ؛ فرغبتهم في الحب لا تتروى . ومريضتي كانت صغرى ستة إخوة وأخوات (ومن ثم : مع خمسة آخرين .) وكانت لذلك الطفلة المحببة إلى والدها ، ولكن يبدو أنها كانت ترى رغم ذلك أن والدها لا يفرغ لها سوى القليل من الوقت والالتفات . — وأما كونها تنتظر حتى أقول لها : إن ذلك غير صحيح ، فأتاه ما يلي : أحضر صبي طرزي ثوباً إليها ، فسلمته النقود ، ثم بعد ذلك سألت زوجها هل هي ملزمة بأن تدفع النقود مرة ثانية لو أن الغلام أضاعها ، فأجابها زوجها بغية معاكستها : يقينا (المعاكسة في الحلم) ، وظلت تعاود السؤال المرة تلو المرة وهي تنتظر أن يقول لها في النهاية : إن ذلك غير صحيح . وهكذا أمكن أن نستخلص أن أفكار الحلم كانت تتضمن تلك الفكرة : هل هي ستلزم بأن تدفع ضعف المبلغ حين أفرغ لها ضعف الوقت ؟ فكرة شحيحة تشمئزها نفسها . (ومن الشائع أن يحل إمساك المال محل قذارة الطفولة في الحلم ؛ وكلمة "باعث على الاشتزاز" ^(١) هي هنا حلقة الوصل .) فلوصح أن كل تلك الفقرة حول انتظاراتها حتى أقول ذلك لها ... الخ . — إنما هي ترجمة مسهبة لكلمة «باعث على الاشتزاز» ، لكان مما يتفق وذلك الوقوف في الركن وإباء الرقود في السرير باعتبارهما عنصرين من مشهد طفلي تكون قد وسخت فيه سريرها فكان عقابها أن وقفت في الركن وقد هددت بأن بابا سوف يكف عن حبها ، بينما ضحك منها إخوتها وأخواتها ... الخ . وأما المربعات الصغيرة فكانت تحيل إلى ابنة أختها — أو أخيها — الصغيرة التي أرتها تلك الحيلة الحسائية التي تلخص في أن تكب أرقاماً داخل تسعة مربعات — على ما أعتقد — بحيث تجمعها في أي اتجاه فيكون المجموع خمسة عشرة .

٣

وها هو ذا حلم آتاه رجل : يرى صبيين يتضاربان ، إنيهما من غير شك صبيبا صانع براميل ، كما يستنتج من العدد المبهمة حولها . يطرح أحد الولدين الآخر أرضاً . يحمل الولد المطروح قرطاً ذا أحجار زرقاء

(١) [Schmutzig وهو يستخدم للقذارة والبيخل الشديد على السواء .]

إنه يندفع نحو ضاربه ورافعاً عصاه لكي يقتص منه . يلوذ الضارب بامرأة تقف بجوار حاجز خشبي . كأنها كانت أمه . إنها امرأة من الطبقة العاملة ، وهي تقف وظهرها إلى الحالم . ولكنها تستدير إليه في النهاية وتصوب إليه نظرة مروعة حتى ليولين الإدبار وقد ملكه الرعب . كان يسع المرء أن يرى اللحم الأحمر لجنفها الأسفلين وقد برز تحت عينها .

إن هذا الحلم يستغل أحداثاً تافهة مما وقع في اليوم السابق استغلالاً واسعاً . فبالأمس رأى الحالم في الطريق حقيقة ولدين طرح أحدهما الآخر أرضاً . فلما تقدم منهما ليفض العراك لاذا بأهداب الفرار . — أما كونهما صبي صانع براميل ، فلا يفسره إلا حلم تال استخدم فيه هذا التعبير : « حرق قاع البراميل » [أى : أفرغ ما بنفسه] . — وأما الأقراط ذات الأحجار الزرقاء فيقول الحالم إن خبرته قد دلته على أن البغايا هن اللاتي يحملنهن بنوع خاص . وعلى ذلك يخطر له بيت من أغنية شعبية ذائعة عن ولدين : « والولد الثاني كان اسمه ماري » (أى أنه كان فتاة) . — والمرأة الواقفة ؟ إنها تجعله يتذكر أنه قد ذهب بعد مشهد الولدين لكي ينتزه على شاطئ الدانوب ، وأنه انتهز خلوته لكي يتبول بجوار حاجز خشبي . ثم بعد ذلك بقليل صادف في طريقه سيدة مسنة محتشمة الرداء ابتسمت له في لطف وأرادت أن تعطيه بطاقة من بطاقات الزيارة .

ولما كانت المرأة تقف في الحلم كما وقف هو من قبل عند تبوله ، فالأمر يتعلق بامرأة تتبول . ومن هنا كانت « النظرة » المروعة ، وكان بروز اللحم الأحمر الذي لا يمكن أن يشير إلا إلى تجويف أعضاء المرأة حين تجلس القرفصاء ، تلك الأعضاء التي رآها في طفولته فترجع من بعد إلى ذاكرته في صورة « لحم منتفش » في صورة « جرح » . والحلم يوحد بين مناسبتين مكنتاه وهو صبي صغير السن من أن يرى أعضاء فتاة صغيرة : إذ طرحها على الأرض مرة ، وحين رآها تتبول مرة أخرى ، وهو — كما يتبين من بقية الحلم — لا يزال يحفظ ذكرى عقاب أو وعيد أناه من والده على ما أبداه في هاتين المناسبتين من التطلع الجنسي .

(٤)

وأما الحلم الآتي — وهو لسيدة مسنة — فتكمن وراءه طائفة كاملة من ذكريات

الطفولة ، أدمجت بقدر الإمكان في تخييل واحد :

تخرج متعجلة في قضاء بعض الحاجيات . تقع على ركبتيها في شارع جرابين كأنما أصابها كبوة . يجتمع من حولها حشد من الناس ومن الحوزية بنوع خاص ، لكن ما من أحد يعينها على النهوض . تبذل هي جهدها مرات متعددة من غير جدوى . لا بد أنها قد أفلحت أخيراً ، فها هي ذى تواضع في إحدى العربات لكي تقودها إلى منزلها . يقذف البعض وراءها ، من خلال نافذة العربة ، بسلة كبيرة مثقلة (من قبيل ما يستعمل في التسوق) .

تلك هي السيدة التي تظهر دائماً معجلة في أحلامها ، مثلما كان شأنها في طفولتها . وحلى أن المشهد الأول من الحلم مستمد من رؤيتها جوادا يقع ، كما أن الكبوة تشير أيضاً إلى سباق الجياد . والحالمة كانت فارسة في شبابها ، وأرجح الظن أنها ، وهي بعد أكثر شباباً ، كانت أيضاً جوادا . وإلى السقوط ترجع ذكرى من أوائل ذكريات طفولتها ، عن ابن البواب البالغ من العمر سبعة عشر عاماً ؛ فقد سقط يوماً في عرض الطريق وقد نزلت به نوبة من الصرع ، وأحضر إلى المنزل محمولاً في عربة . إنها بالطبع لم تعلم ذلك إلا سماعاً ، ولكن فكرة نوبات الصرع ، فكرة « النازلة » ، قد اكتسبت سلطاناً عظيماً على مخيلتها ، وكان لها فيما بعد أثرها في تشكيل نوباتها المستيرية . — وإذا حلمت امرأة بالسقوط كان في حكم القاعدة أن لذلك معنى جنسياً : إنها تغدو « ساقطة » . وإذا كان هذا التفسير يثير شكاً فهو لا يثير في حلمنا إلا أقله ؛ لأنها تسقط في طريق جرابين ، أى في ذلك المكان من فيينا الذي عرف بكونه مراوح العاهرات ومغذاهم . وأما سلة التسوق فتحتمل أكثر من تفسير : فهي ، من حيث أنها سلة - رفض ^(١) ، تذكرها بالسلال المتعددة التي وزعتها أول الأمر على المتيمين بها ، ثم عادت بدورها — كما تعتقد — فتلقها . ومن ثم جاء أنه ما من أحد يريد أن يعينها على النهوض — وهو ما تقوله بنفسها على أنه يعنى الازدراء بها . وتذكرها سلة السوق بعد ذلك بتخييلات سبق ظهورها في خلال

(١) [Einkaufskorb = سلة التسوق . ولفظ Korb له معنيان : السلة والرفض أو الإباء . و " أعطته

سلة " تعبير ألماني جار ، بمعنى : صدت حبه أو طلبه الزواج منها .]

تحليلها ، وكان مدارها أنها قد تزوجت زواجاً دون منزلتها بكثير ، حتى صارت تذهب إلى السوق بنفسها لكي تقضى منه حاجياتها . وسلة التسوق – أخيراً – قد تكون شارة يدل بها على خادم . وفي هذا الصدد تحضرها ذكريات أخرى من طفولتها : الذكرى الأولى عن طاهية طردت لأنها سرقت ؛ إنها – أيضاً – قد سقطت على ركبتيها تطلب الغفران . لقد كان عمر الحاملة إذ ذاك اثنتي عشرة سنة . وأما الذكرى الثانية فعن خادم طردت من المنزل لعلاقة بينها وبين الحوذى – ونقول عرضاً : إن الحوذى قد تزوج الخادم بعد ذلك . وهكذا ترينا هذه الذكرى أحد مصادر الحوذية في الحلم (إلا أن هؤلاء لا يأخذون بساعد المرأة الساقطة ، على خلاف ما قد وقع في الحقيقة) . و يبقى علينا أن نفسر قذف السلة ، وقذفها من خلال النافذة : إن ذلك يذكرها بتثبيح الطرود بسكة الحديد ، وعبادة العشاق في الريف أن يناجوا محبوباتهم ليلاً بالـ نوافذ ، وكذلك بيضعة انطباعات صغيرة تركتها حياتها في الريف : كيف رى سيد سيدة بيضعة برقوقات زرقاء من خلال نافذتها . وكيف فزعت أختها الصغرى يوماً لأن معتمها عابراً تطاع إلى غرفتها من خلال النافذة . ومن خلال هذا كله تنبثق ذكرى معتمة من سننها العاشرة عن مربية اشتبكت وهم بالريف في علاقة غرامية – يحتمل أن تكون الفتاة قد أدركت شيئاً منها – مع أحد الخدم ، فكان جزاؤها أن "شيعت" من المنزل و"قذفت إلى الخارج" (وفي الحلم الضد : "قذف إلى الداخل") – وهي قصة كنا قد اقترنا منها من وجهات أخرى متعددة . بيد أن متاع الخادم أو صندوقها يسمى في قيينا على سبيل الاستخفاف «بالسبع برقوقات» : « احزى برقوقاتك السبع وانزحى ! »

إن مجموعتي تنزخر بالطبع بأحلام كهذه من أحلام المرضى ، يسوق تحليلها إلى انطباعات من الطفولة لم تعد تذكر إلا ذكراً غامضاً ، أو لا تذكر البتة ، انطباعات كثيراً ما ترجع إلى السنوات الثلاث الأولى من الحياة . بيد أن تطبيق النتائج المستخلصة منها على الأحلام عامة عمل غير مأمون . فأصحابها كانوا دائماً من العصائيين ، وبخاصة هستيريين . فمن الجائز أن يكون نصيب المشاهد الطفلية في أحلامهم راجعاً إلى طبيعة العصاب عندهم وليس إلى ماهية الحلم . بيد أنني وأنا أفسر أحلامي نفسى – وهو مع ذلك تفسير لا أفعله من جراء أعراض مرضية بالغة – يتفق لى بمثل تلك الكثرة أن أعثر

في محتوى الحلم الكامن ، وأنا خالى البال ، على مشهد من مشاهد الطفولة ، وأن أرى مجموعة كاملة من أحلامي ترتبط دفعة واحدة بمستدعيات تشعب من خبرة وقعت في طفولتي . وقد سقطت من قبل أمثلة على ذلك ، وسوف أسوق أمثلة أخرى منها في مناسبات شتى . ولعل خير ما أختتم به هذا الجزء كله هو أن أسرد بعضاً من أحلامي تلتني فيه مناسبات حديثة بجزرات من الطفولة انسحب عليها النسيان دهنراً طويلاً ، فكانت جميعاً مصادر للحلم .

(١) أويت إلى الفراش وأنا متعب جائع ، ثم أخذت حاجبات الحياة الكبرى تعلن عن نفسها ، فكان أن حلمت الحلم الآتي : أذهب إلى المطبخ في طلب بعض الحلوى . هناك ثلاث نساء واقفات ، إحداهن هي مضيغة النزل . إنها تدير شيئاً في يدها كما لو كانت تصنع فطيراً . تجيبني أن على بالانتظار حتى تفرغ (لم يكن من الواضح أنها قد تكلمت) ينفد صبري وانصرف متأذياً . ارتدى معطفاً ، ولكن المعطف الذي أجربه أولاً مفرط الطول . أخلعه وأدهش إذ أراه محل بالقراء . ارتدى معطفاً ثانياً له ذيل طويل ، موشى برسوم تركية . يقبل رجل غريب ، ذو وجه مستطيل ولحية مدببة ، ويمتنع من ارتدائه قائلاً : إن المعطف معطفه . أريه أن المعطف منطى كله بوشى تركى . يسألني : « وما لك و (الرسوم ، الذبول . . .) التركية ؟ ولكننا سرعان ما نصبح صديقين حميمين .

عندما أخذت أحلل هذا الحلم ، اتجه خاطري على خير توقع إلى أول رواية قرأتها - ولعل كنت إذ ذاك في الثالثة عشرة من عمري ^(١) - وأقول قرأتها والحقيقة هي أنني بدأتها من نهاية المجلد الأول . وما علمت قط اسم الرواية ولا اسم مؤلفها ، ولكن خاتمتها لا تزال حية في ذاكرتي : يتردى البطل في هاوية من الجنون وهو يردد أسماء النساء الثلاث اللأئي كان لهن في حياته أعظم النصيب من سعادتها ومن شقائها . وكان بيلاجي أحد هذه الأسماء . ولست أعلم بعد ما أنا صانع بهذا الخاطر في التحليل . وههنا تنبثق في خاطري - بصدد النساء الثلاث - آلهات القدر الثلاث اللأئي ينسجن مصائر الناس . وأعلم أن إحدى النساء الثلاث - وأعني المضيغة في الحلم - هي الأم التي تهب الحياة ثم تعطي الحى (كما كان الشأن معي) أول غذاءه . إن الجوع والحب يلتقيان على صدر المرأة . والقصة تُروى عن شاب غدا من كبار المعجبين بالجمال الأنثوي ، دار الحديث عن جمال المرضع التي غذته وهو وليد ، فأعرب عن أسفه إذ لم ينتهز الفرصة ببحر مما فعل . وإن

(١) [لا شك في أن فرويد يعنى أول رواية من أدب المحدثين ؛ فن المقطوع به أنه كان قد قرأ معظم

أن من عادتي أن أستعين بهذه القصة لأوضح بها عامل التأثير البعدي^(١) في ميكانيكية الأعصاب . كانت إحدى الآهات - إذن - تفرك يديها كأنها تصنع فطيراً : إنها لمَشْغلة عجيبة بالقياس إلى إحدى آهات القدر^(٢) ، ولا بد لها من إيضاح عاجل ! إن هذا الإيضاح تحمله ذكرى أخرى ، أقدم عهدا ، من ذكريات طفولتي : فقد كان المفروض - وأنا طفل في السادسة أتلقى من أمي أول دروسى - هو أن أصدق أننا جعلنا من طين وأنا - إذن - إلى الطين نعود ، ولكن النظرية لم ترقى وارتبت في أمرها ، وحينئذ فركت أمي كفيها - مثلما تفعل حين تصنع الفطير سوى أنه لم يكن عجيين بين يديها - ثم أرنتى ما انفرك من القشور الصغيرة السوداء لطبقة الجلد الخارجية ، برهاناً على الطين الذى صنعنا منه . لقد كان دهشى لهذا البرهان العيانى لا يعرف حداً ، وكان أنى أسلمت نفسى لما سمعته من بعد يؤدى في تلك العبارة : إن عليك للطبيعة مية^(٣) . وهكذا فالهات القدر هن حقاً من أجد حين أذهب إلى المطبخ ، مثلما كنت أفعل كثيراً في طفولتى حين كنت أحس الجوع ، وكانت أمي تأمرنى - وهى بجانب النار - بأن أنتظر حتى يعد الغذاء . - والآن إلى الفطير [بالألمانية كنودل] ! إن بين من علمونى في الجامعة معلماً واحداً على الأقل - وهو على التحقيق من أدين له بمعرفتى في علم الأنسجة (الطبقة الخارجية للجلد) - سوف يذكره اسم كنودل [من حيث هو اسم علم] بشخص اضطر

(١) [Nachträglichkeit من Nachtraglich بمعنى « من بعد » . والمراد هو أن الخبرة الماضية لا تحدث تأثيرها عند وقوعها ، بل بعد أن تنقضى حقبة من الزمن . وتأثيرها بهذا المعنى يكون « فعلاً مرجأً » a deferred action - وتلك بالفعل هى الترجمة المطردة التى يستعملها سترائى لهذا الاصطلاح . غير أن هذه الترجمة تفعل بعداً آخر من أبعاد هذه الفكرة : ذلك أن « من بعد » تعنى أيضاً أن الخبرة لا تحدث تأثيرها إلا بعد أن يمرد عليها صاحبها فينظمها تنظيماً جديداً ويخلع عليها معنى لم يكن لها في المبدأ . ففي القصة التى يشير إليها فرويد يخلع الشاب معنى تناسلياً على علاقة لم يكن لها سوى طابع فى . وهذا المعنى الثانى هو من غير شك المعنى الأهم وهو الذى يجعل للفكرة أصالة يستحيل معها ردها إلى تصورات علم النفس التجريبي . ولم نجد - للإبقاء على المعنيين - خيراً من أن نقول : عامل « التأثير البعدي » .]

(٢) [من المعلوم أن أولى آهات القدر - وهى المشرقة على الولادة - كانت تمسك المغزل ، وكانت الثانية تدبير البكرة ، وأما الثالثة فتقطع خيط الحياة .]

(٣) (إن كلا الانفعالين اللذين صحبا هذا المشهد : الدهش والاستسلام للمحتوم - قد أتانى من قبل فى حلم سبق هذا الحلم بوقت قصير وكان أول ما ذكرنى بتلك الخبرة الطفولية [هذا ولقد استشهد فرويد بتلك الكلمات فى إحدى رسائله إلى فليس (الرسالة رقم ١٠٤) ناسبا إياها إلى شكسبير والنص الصحيح من شكسبير هو : « إن عليك لله مية » (الجزء الأول من هنرى الرابع ، الفصل الخامس ، المشهد الأول ، يقوله الأمير هال لفالستاف .) ولكن « وفى دينه الطبيعية » كان تعبيراً ذاتماً فى زمن جوته ، يعرب عن فكرة العصر عن الموت .]

معلمي إلى مقاضاته لأنه نقل كتاباته . وأن يرتكب المرء مثل هذا النقل [پلاجيات] ، وأن يستحل لنفسه كل ما صادفه وإن كان ملكاً للغير — ذلك ما ينتقل بنا ، كما هو ظاهر ، إلى الجزء الثاني من الحلم الذي أعامل فيه مثلما عومل سارق المعاطف الذي زاول حرفته حيناً في قاعات محاضراتنا . ولقد استخدمت كلمة « پلاجيات » [نقل أو سرقة أدبية] عن غير قصد لا لشيء سوى أنها خطرت لي ، ولكنني ألحظ الآن أن من الممكن أن تكون هذه الكلمة قد استخدمت جسراً [بروكه بالألمانية ، وهو أيضا اسم أحد أساتذة فرويد] يصل بين الأجزاء المختلفة لمحتوى الحلم الظاهر . فسلسلة المستدعيات : پلاجي — پلاجيات — پلاجيوستوم ^(١) (أى سمك القرش) — مثانة السباحة عند السمك ^(٢) ، قد وصلت الرواية التي قرأتها قديماً بجاذبة كنودل وبالمعاطف التي تشير من غير خفاء إلى عدة لها وجه استخدامها الجنسي [ارجع إلى ص ٢٠٧] . (أنظر حلم موري [عن السلسلة الجنسية] : كيلو — لوتو ، في ص ٩٤) . وذلك على التأكيد رباط قد بلغ الغاية من الافتعال ومن اللامعقولية ، ولكنني ما كنت قط لأجد القدرة على اختراعه ، لو لم يكن قد أنشئ من قبل في خلال عمل الحلم . لا ، بل لكأن هذا الدافع القهري إلى فرض الروابط لا يعرف لشيء حرمة : فها هو ذلك الاسم الموقر ، اسم بروكه (أنظر الجسر اللفظي فيما سبق) يستغل في تذكيري بالمعهد الذي قضيت به أسعد أيام حياتي ، طالباً خلت نفسه من كل حاجة سوى الدرس (« وهكذا أنت على صدر الحكمة ، سوف تجد في كل يوم لذة ») ^(٣) — بما يباين كل المباينة تلك الرغبات التي تعذبني [في الألمانية : پلاجن] وأنا نائم . وتنبثق أخيراً ذكرى معلم آخر « كبيره » ، كان اسمه — فلايشل ^(٤) [فلايش = لحم] — يجانس أيضاً اسم غذاء (مثل كنودل) ، ثم ذكرى حادثة فاجعة تدخل فيها قشور الطبقة الخارجية للجلد (الأم المضيقة) والاضطراب العقلي (الرواية) ودواء من أدوية العطاراة [الترجمة

(١) لقد تجنبت عادة التوسع في صدد « پلاجيوستوم » ؛ إنه يذكرني بمناسبة غير سارة جرت على الخزي أمام المعلم المذكور .

(٢) (Pélagie - Plagiat - Plagiostomen (Haifische) — Fischblase)

(٣) [بيتان من المشهد الرابع من الجزء الأول من فاوست : " في مكتب فاوست " .]

(٤) [أنظر فيما يتصل ببروكه وفلايشل بعض الحقائق التي سردناها عن صلة فرويد بهما في

هامش [وضعناه في صفحة ٤٨٠ .]

الحرفية هي : من المطبخ اللاتيني [يسكن الجوع - وهو الكوكابين .
لقد كان يسعنى أن أتابع خيوط الفكر المتشابكة على هذا النحو ، وأن أتق الضوء
كاملا على هذا الجزء من الحلم الذى لا يزال ينقصنا تحليله . ولكنى لا أجد بدا من التخلي
عن هذا العمل لما يقتضيه من تضحية شخصية فادحة . وإنما أكتفى بأن أقبض على خيط
واحد من بين الخيوط التى تقودنا إلى أفكار الحلم الكامنة وراء هذا الخليط : إن الرجل
الغريب ذا الوجه المستطيل واللحية المدببة ، والذى يمنعنى من ارتداء المعطف - يحمل
ملاصح تاجر فى سهالاتو اشترت منه زوجى كثيراً من الأقمشة التركية . وكان الرجل يدعى
پوپوفيتش^(١) - وهو اسم مريب ، عقب عليه من قبل أحد الكتاب الفكاهيين ، هو
شتينهايم ، بملاحظة غامزة إذ قال : وذكر لى اسمه ثم ضغط يدى وقد احمر وجهه خجلا .
ولكن هأنذا أرانى من جديد إزاء ذلك اللعب بالأسماء الذى رأيناه من قبل فى بيلاجى
وكوندول وبروكه وفلايشل . وما من أحد يجادل فى أن مثل هذا اللعب ضرب من الخبث
الطفلى . فإذا كنت أمعن فيه ، فذلك قصاص لنفسى ؛ فقد اتفق فى مناسبات لا تحصى
أن كان اسمى أيضاً ضحية لأمثال هذه المحاولات السهلة فى الفكاهة^(٢) . وقد لاحظ جوته
مدى حساسيتنا فيما يتصل بأسمائنا التى نحس أننا قد نمونا معها نمونا فى جلدنا ، وكانت
تلك الملاحظة حين نظم هررد فى اسم جوته قوله :

« أنت يا سليل الآلهة أو الغوط أو الطين » -

« هكذا باتت صوركم الآلهية تراباً »^(٣)

إنى ألاحظ أن هذا الاستطراد حول إساءة اللعب بالأسماء إنما قصد به إلى التمهيد لتلك
الشكاة . ولكن لنقفن ههنا . - إن صفقة سهالاتو تذكرنى بأخرى فى كاتارو كانت

(١) [پوپو لفظ يطلق فى لغة الأطفال على المؤخر .]

(٢) [" فرويد " يعنى فى الألمانية السرور .]

(٣) "Der du von Göttern abstammst, von Gothen oder vom Kote"

"So seid ihr Götterbilder auch zu Staub."

[يلاحظ القارئ أن Götter فى الكلمتين المبرزتين لا تكاد تختلف فى النطق من اسم الشاعر الكبير جوته ،
وهو ما يضيع عند الترجمة . ويقول سترائى : إن السطر الأول قد نظمه هررد فى رسالة ظريفة بعث بها إلى جوته
يسأله إعارته بعض الكتب ، وبقيته : أى جوته ، ابعث إلى بها ! وأما السطر الثانى فيلمح بالأول فى ذهن فرويد
على سبيل الاستدعاء الحر ، وهو مستمد من مسرحية جوته المنظومة : " إيفيجينيا فى توريدا " ، تمرب به إيفيجينيا
من أمتها حين ينبؤها بيلاد أى عدد من الأبطال ماتوا فى أثناء حصار طروادة .]

يدى فيها شديدة القبض فضاعت على فرصة الظفر بشيء جميل . (فوات الفرصة على صدر المرضع ، أنظر ما سبق .) فين الأفكار التي أوحاها الجوع إلى الحالم فكرة ذلك فحواها : إن من الواجب ألا يدع المرء شيئاً يفوته وأن يأخذ المرء كل ما استطاع أخذه وإن جر ذلك بعض الجور ، على المرء ألا يضيع فرصة ؛ فالحياة قصيرة والموت محتوم .

ولما كان هذا الدرس في « اغنم من الحاضر لذاته »^(١) يرسل على إطلاقه وكانت الشهوة لن تحجم عن الجور ، فقد حقت له خشية الرقابة وحق عليه أن يستتر بحلم . ومن ثمت كان الإعراب عن أفكار مضادة من كل نوع : من ذكرى الزمن الذي كان الحالم يقنع فيه بالغذاء الروحي وحده ، إلى أفكار تتصل بكل ضروب الموانع ، لا ، بل إلى تهديدات بألوان من العقاب الجنسي من أشد ما يكون تنفيراً .

(٢) وما هو ذا حلم ثان يتطلب تمهيداً طويلاً بعض الطول :

كنت قد ركبت عربة إلى محطة الغرب [في فيينا] لكي أبدأ منها رحلة الإجازة إلى آوسى . بيد أنني وصلت إلى الرصيف مبكراً وقطار إشل الذى يرحل قبل قطار آوسى لا يزال واقفاً . وهناك لمحت الكونت تون^(٢) في طريقه مرة أخرى إلى مقابلة الإمبراطور فى إشل . جاء الكونت على رغم المطر فى عربة مكشوفة ، ثم مرق لا يلوى على شيء من مدخل قطر الضواحي ، منحياً بإشارة مقتضبة من يده لا يصحبها أى إيضاح حارس الباب الذى لم يعرفه وأراد أن يأخذ التذكرة منه . وكان الواجب على بحسب النظم أن أغادر الرصيف عائداً إلى حجرة الانتظار بعد أن رحل قطار إشل ، بيد أنني استطعت - بعد شيء من الجهد - أن أحصل على إذن بالبقاء . وأخذت أقطع الوقت أترقب من ذا الذى يأتى فيحاول أن يحصل بطريق المحسوبة على مقصورة محجوزة ، عاقداً العزم على أن أرفع الصوت عندئذ بالشكوى ؛ أى على المطالبة بحق مماثل . وفى هذه الأثناء كنت أدندن بشيء لم ألبث أن عرفت فيه ذلك اللحن من زواج فيجارو :

(١) [*carpe diem* كلمة دائمة لهوراس ترجمتها الحرفية « اغنم يومك » ولها المعنى الذى لكلمة الخيام

المعروفة .]

(٢) [رجل من رجال الدولة النمساويين ، ذو آراء رجعية ، عاش بين عامى ١٨٤٧ - ١٩١٦ . كان

يريد قيام حكومة ذات استقلال ذاتى فى بوهيميا ، معارضا مطالب الوطنيين الألمانين . ولى الوزارة عام ١٨٩٨ ،

١٨٩٩ . - وأما إشل *Ischl* فكانت المصيف الرسمى للبلاط ، بأعلى النمسا .]

إذا أراد سيدي الرقص ، الرقص ،
 فما عليه سوى الطلب ،
 وأنا كفيل بالعزف .

(وما أظن أن أحداً غيري كان ليعرف ماذا أغنى .)

لقد كنت طيلة المساء في مزاج ناثر شكس ، فتهكمت بالنذل وبسائق العربية — دون أن أبحر شعورهما ، أو هذا على الأقل مأرجوه . وتجول الآن برأسى خواطر جريئة ثورية من كل صنف ، خواطر تتفق وكلمات فيجارو وتتفق وذكري مسرحية بومارشيه التي رأيتها تمثل في الكوميدي فرانسيز : كلمة فيجارو عن كبار السادة الذين كبدا أنفسهم عناء المحيء إلى الحياة ، حق السيادة الذي يريد الكونت أماًيقها أن يستولى باسمه على سوزانا [حبيبة فيجارو] ، ثم النكات التي تجربها جرائد المعارضة الحبيثة عندنا حول اسم الكونت تون إذ تسميه الكونت نيختستون^(١) . حقاً ، لست أحسده ؛ فهناك مقابلة عسيرة تنتظره مع الأباطور . وما الكونت « فاعل لا شيء » حقيقة إلا إياي : فأنا المسافر حراً طليقاً في إجازة . وتتاو ذلك ألوان من المشاريع السارة أدبرها . ثم يقبل سيد كنت قد عرفته مراقباً موفداً من قبل الحكومة في امتحان كلية الطب واستحق على نشاطه في هذا المضمار أن يلقب بذلك اللقب اللطيف : « نَوَام الحكومة » . إنه يطلب بماله من صفة رسمية نصف تذكرة بالدرجة الأولى . وأسمع أحد الموظفين يسأل موظفاً آخر : « بأى مقصورة نضع السيد صاحب نصف تذكرة الدرجة الأولى ؟ » ذلك أيضاً لون طريف من ألوان التفرقة ؛ فأنا قد دفعت درجتى الأولى كاملة . صحيح أنني حصلت على مقصورة كاملة ، ولكنها في عربة لا دهليز لها ، بحث أظل طيلة الليل ولا مرافق في تناول . وأشتكى إلى الموظف ، فلاتنمر الشكاية شيئاً ، فأثار لنفسى بأن أقترح عليه أن يصنع على الأقل ثقباً بأرض تلك المقصورة ؛ فقد يحتاج إليه المسافرون . ثم في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين من الصباح ، أستيقظ حقيقة — وبى حاجة ملححة إلى التبول — من الحلم الآتى :

حشد من الناس ، اجتماع طلبية . — يخطب في الجمع كونت (اسمه تون أو تافه^(٢) .) يتحداه البعض أن يقول

(١) [أى الكونت " فاعل لا شيء " . Thun. (تون) يعنى أيضاً " فعل " و Nichts يعنى " لا شيء " .]

(٢) [Taaffe (١٨٣٣ - ٩٥) سياسى ألماني ، ولى رئاسة الوزارة بين عامى ١٨٧٠ ، ١٨٧١ ثم من

١٨٧٩ إلى ١٨٩٢ . وكان مثل الكونت تون يجهد منح الاستقلال الذاتي للأجزاء غير الألمانية من الإمبراطورية

النموية .]

شيئاً عن الألمان ، فيجيب بمرحة نتم عن الازدراء : إن زهرتهم المفضلة هي حشيشة السعال ، ثم يثبت في عروته شيئا أشبه بورقة ممزقة من أوراق الشجر - وأعلى الأصح هيكلها الجعد . أهب نائراً ، وأهب نائراً^(١) بيد أنني أعجب مع ذلك لانفدالى هذا . ثم في وضوح أقل : المكان أشبه بقاعة الاحتفالات الكبرى في الجامعة [Aula] . الأبواب محاصرة ولا بد من الفرار . أشق طريقى فى سلسلة من الغرف فرشت فرشاً جميلاً ، كان جليلاً أنها حجرات رومية ، نجد أثاثها بلون متوسط بين البنى والبينفسجى . وأخيراً أبلغ بهوا جلست فيه خادم - امرأة عجوز بدينة . أتجنب التحدث إليها ، ولكن كان من الواضح أنها كانت تحسب أن لى حقاً فى المرور من هناك ؛ لأنها تسألنى : هل تراقفتى بالمصباح ؟ أفهمها أو أقول لها : إن عليها أن تلزم السلم ، ويهياً لى فى أثناء ذلك أنني شديد المهارة ، إذ نجحت فى أن أفلت فى النهاية من التفتيش وهكذا بلغت أسفل السلم ، فأرى أمامى طريقاً ضيقة شديدة الصمود ، أمضى فيها .

وفى غير وضوح كذلك : . . . كأنما مشكلتى الثانية هي الفرار من المدينة كما فررت قبل ذلك من المنزل . أركب عربة وأطلب من السائق أن يذهب بى إلى إحدى محطات السكة الحديدية . أقول للسائق وقد أثار اعتراضاً ما كان أكون كلفته ما لا يطيق : « إننى لا أستطيع أن أركب معك مسافة الخط الحديدى نفسه . » لكأنما كنت فى أثناء ذلك قد ركبت معه بالفعل جزءاً من المسافة التى يركبها المرء عادة بالمقطار . المحطات محاصرة ، وأنا أفاضل بين الذهاب إلى كرمس أو إلى تسنايم . بيد أنني أفكر فى أن البلاط ربما كان مقبياً هناك ؛ فأعقد العزم على الذهاب إلى جراتس أو إلى مكان يشبهها . أجلس الآن فى عربة قطار أشبه بعربة من عربات خط الضواحي ، وفى عروقتى شيء غريب الشكل ، مضفر ، مستطيل ، علته أزهار بتفسج ذات لون بنفسجى بنى ، صنعت من قماش خشن ، ويعجب الناس لذلك كثيراً . وهنا ينقطع المشهد .

أراني أمام المحطة مرة أخرى ، بيد أنني فى صحبة سيد هرم . أفكر فى خطة تمكننى من البقاء مجهول الشخصية ، ولكننى أجد الخطة قد تحققت بالفعل : كأنما كان التفكير والخبرة الفعلية شيئاً واحداً . يبدو ذلك السيد فاقد البصر أو على الأقل أعور ، أمد له مبولة زجاج للرجال (كان علينا أن نشتريها من المدينة أو أننا اشتريناها فعلاً) أنا إذن مريض ومن واجبى أن أمد له المبولة لأنه أعمى . لو أن المفتش رأنا بتلك الحال لتفاضى من غير شك عنا . هنا يظهر العميان فى صورة تامة الشكل وضع الرجل وعضوه المتبول . وفى هذا الموضع كان أنى استيقظت وبى حاجة إلى التبول .

إن هذا الحلم فى جملمته يلوح تخيلاً يحمل الحلم إلى ثورة عام ١٨٤٨ التى جدد ذاكرها يوبيل [الإمبراطور فرانسيس جوزيف] عام ١٨٩٨ ، كما جددتها ذكرى رحلة

(١) تكرر تسلل وأنا أمجل الحلم دون أن يكون لذلك سبب ظاهر سوى السهو . ولكننى تركته كما هو ؛ فسوف يبين التحليل أن له معناه .

قصيرة إلى فاشاو ، زرت في أثناءها إمرسدورف ^(١) حيث مثوى زعيم حركات الطلبة فيشهوف الذى ربما كان في بعض عناصر الحلم ما يوجب إليه . وتذهب في المستدعيات بعد ذلك إلى إنجلترا ، إلى منزل أخى الذى دأب على أن يمازح زوجته بأن يردد على مسمعها تلك الكلمات المقتبسة من عنوان لإحدى قصائد اللورد تينسون : « منذ خمسين عاماً مضت » ^(٢) فيصححها الأطفال قائلين : منذ خمسة عشر عاماً . بيد أن هذا التخييل الذى تفرع عن الخواطر التى أثارها في نفسى رؤية الكونت تون يخلو — مثل واجهة كنيسة إيطالية — من كل رابطة عضوية تجمع بينه وبين البناء الذى من خلفه ، وإن كان يختلف بعد ذلك من مثل تلك الواجهة في أنه ملء بالثغرات ، مشوش ، وفي أن بعض الأجزاء الداخلية قد برزت في كثير من المواضع . فالموقف الأول من الحلم خليط من مشاهد متعددة أستطيع أن أفرق بينها . فالهيئة المتعاطمة التى اتخذها الكونت في الحلم تنسخ مشهدا وقع في المدرسة الثانوية ، كنت حينه في الخامسة عشرة من عمري : فقد كنا تأمرنا على معلم مكروه جاهل ، وكان الروح المحرك للمؤامرة رقيقاً تدل الدلائل على أنه — منذ ذلك الحين قد اتخذ من هنرى الثامن ملك إنجلترا مثالا يحتذى . وكانت قيادة الضربة القاضية قد وكلت إلى . وكانت العلامة المؤذنة بالثورة المكشوفة هى أن نفتتح نقاشا في أهمية الدانوب بالنسبة إلى النمسا (أنظر فاشاو ^(٣)) . وكان في زمرة المتآمرين الرفيق الوحيد الأرسطوقراطى الأصل بيننا ، وكنا نسميه « الزرافة » لما كان بأطرافه من طول مفرط . وأذكر أنه حين أخذ يناقشه الحساب طاغية المدرسة — وأعنى به أستاذ اللغة الألمانية — قد وقف بمثل وقفة الكونت في الحلم . وأما الزهرة المفضلة ووضعى في العروة شيئا لا بد من أن يكون أيضاً زهرة (وهو ما يجعلنى أفكر في سحالب كنت أحضرها في ذلك اليوم إلى صديقة لى ، وأفكر فوق ذلك في وردة من ورد أريحا ^(٤)) فيذكرانى تذكيراً عجباً

(١) فاشاو ذلك خطأ ، لكنه ليس هفوة هذه المرة ! فاعلمت إلا فيما بعد أن إمرسدورف الواقعة في فاشاو هى غير البلد المسمى أيضاً بهذا الاسم والذي أوى إليه الزعيم الثورى فيشهوف .

(٢) [بالإنجليزية في الأصل . ويقول ستراشى : إنه لا يبدو أن لتينسون قصيدة لها هذا المطلع .]

(٣) [فاشاو شعبة من وادى الدانوب تبعد قرابة الخمسين ميلا من فيينا .]

(٤) [نسبة إلى أريحا وهى أول بلد استولى عليه بنو إسرائيل بعد أن عبروا الأردن على حسب قصة دائمة

تجدها في الإصحاح السادس من سفر يشوع . ولهذا النوع من الورد خاصة عجيبية هى أنه يندى في الجفاف ثم لا يلبث أن يبعث إلى الحياة إذا وجد في الرطوبة . وهو — إذن — ورد « البعث » .]

بالمشهد الذى يصور فى إحدى روايات شكسبير التاريخية^(١) ابتداء حروب الوردتين الحمراء والبيضاء - وورود ذكر هنرى الثامن قد مهد السبيل لهذه الذكرى . والمسافة بعد ذلك غير بعيدة من الورد إلى القرنفل الأحمر والأبيض . (وفى هذه الأثناء يتسرب إلى التحليل سطران من الشعر أولهما ألماني وثانيهما أسباني : ورد خزامى أو قرنفل ، كل الأزهار تذبل . - إيزابيلتا لا تبك ، فالأزهار من بكائك تذوى^(٢)) . والبيت الأسباني يرجع بى إلى « فيجارو » والقرنفل الأبيض قد صار عندنا ، فى قبينا ، شارة أعداء الساميين بينما الأحمر شارة الاشتراكيين الديموقراطيين . ومن وراء ذلك تكمن ذكرى حادثة من حوادث استفزاز الساميين وقعت فى خلال رحلة بالسكة الحديدية فى ريف ساكس الجميل (أنظر آنجلو ساكسون) . وأما المشهد الثالث الذى شارك فى تكوين الموقف الأول من الحلم فيرجع إلى السنين الأولى من حياتى المدرسية : فقد جرت فى ندوة للطلبة الألمان مناقشة فى علاقة الفلسفة بالعلوم الطبيعية ، فاندفعت - وأنا لا أزال فى غصاً ملأت رأسه النظريات المادية - أذود عن وجهة نظر متطرفة لا مهدنة فيها . وهنا نهض زميل يكبرنى سناً وعقلاً ، أبدى منذ ذلك الحين قدرته على توجيه الرجال وتنظيم الجماعات وكان بعد يحمل اسماً من المملكة الحيوانية^(٣) ، نهض فألقمنا حجراً : فهو أيضاً قد رعى الخنازير فى صباه ثم رجع تائباً إلى بيت أبيه^(٤) . وعندئذ هبت نائراً (كما فى الحلم) وأجبتة ، فى غلظة الخنزير^(٥) : أنى وقد علمت أنه قد رعى الخنازير يوماً ، لا أعود أدهش للهجة خطابه . (فى الحلم أدهش للموقف الوطنى الألمانى الذى اتخذته .) وهنا عم الصخب ، وارتفعت الأصوات من جوانب متعددة تطالبنى بأن أسحب

(١) [الجزء الثالث من هنرى السادس الفصل الأول ، المشهد الأول .]

(٢) [Isabelita, no llores, que se marchitan las flores.]

(٣) [المظنون أنه فيكتور أدلر (Adler = نسر) الزعيم الاشتراكى الديموقراطى (١٨٥٢ - ١٩١٨) . وأنظر

الإشارة التى سترد قريباً إلى هذا الاسم .]

(٤) [إشارة إلى مثال معروف للسيد المسيح تجده فى إنجيل لوقا ، الإصحاح الخامس عشر ، ويفضرب

لمره يركب رأسه ثم يعود إلى عشيرته مستغفراً .]

(٥) [ترجمة حرفية لوصف جار : saugrab .]

كلمتي ، ولكنني ثبت على موقفي . وكان الزميل المهان أعقل من أن يرى في تلك البادرة تحدياً موجهاً إليه ، فترك المسألة تهدأ من تلقاء نفسها .

وأما العناصر المتبقية من هذا الموقف الأول في الحلم فتنبعث من طبقات أعمق . فما معنى أن يعلن الكونت عن « حشيشة السعال » ما أعلنه ؟ لا مناص لي هنا من أن أسأل مستدعياتي ، فأجد : حشيشة السعال [والترجمة الحرفية لاسمها الألماني هي : خس الحافر] - خس - سلطة - كلب السلطة ^(١) إننا نجد هنا ذخيرة من أسماء الشتائم : زَرَ - افه [« آفه » بالألمانية معناه القرد] ، ختزير ، كلب - وكان يسعني لو قد عرجت على اسم آخر أن أتوصل إلى حمار ، وأن أخرج بذلك مدرساً جامعياً آخر . وأنا - عدا ذلك - أترجم حشيشة السعال إلى الفرنسية - ولست أدري هل الترجمة صحيحة أم لا - بكلمة "pisse-en-lit" ^(٢) . ولقد استنتجت ذلك من رواية زولا « جرمينال » ففيها نرى الأطفال يكلفون بجمع هذا النبات لأجل السلطة . والكلب ينطوي اسمه الفرنسي - chien - على جناس مع اللفظ الدال على الوظيفة العضوية الكبرى (Chier [تبرز] مثل pisser بالنسبة إلى الوظيفة الأصغر) . ولا يلبث أن تجتمع لنا القذارة في كل حالاتها المادية [الصلبة والسائلة والغازية] : فإن تلك الرواية عينها « جرمينال » - وهي تدور إلى مدى كبير حول الثورة القادمة - قد اشتملت على وصف منافسة فريدة في نوعها حول إنتاج مستخرج غازي اسمه فلاتوس ^(٣) [نفس أو ريح] . ولا يسعني الآن إلا أن ألحظ كيف مهّدت الطريق المؤدية إلى « فلاتوس » هذا منذ أمد طويل : من الأزهار عبر البيت الإسباني إلى إيزابيلينا ، إلى إيزابيلا وفرديناد ثم عبر هنري الثامن إلى التاريخ

(١) ["Salathund"] أي « كلب السلطة » تعبير نمسوي يقال لمن امتيأس في التشبث بشيء لاعتن رغبة منه فيه بل لأن غيره قد رغب فيه . ومنشأ هذا التعبير قصة لاقت ذيوماً عظيماً للكاتبه أوجيني شفارتسفالده عن كلب لم يكن يعطيه صاحبه سوى الخس وكان الكلب لا يأكله إلا راغماً ، إلى أن جاء يوماً كلب أدق منه فقرا فأراد أن يزاحمه في أوراق الخس هذه ، فتهض الكلب يطرد غريمه ويدافع عن خسه دفاع المستميت .

(٢) ["Pissenlit"] في الحقيقة هو الهندب أو الخس البري . تقطيع الكلمة على النحو الوارد في النص يجعلها تحتل هذا المعنى : بال في السرير .

(٣) وهو ما لم يرد في الحقيقة في Germinal بل في La terre [الأرض] - وهي غلطة لم ألحظها إلا بعد أن فرغت من التحليل . - لاحظ الاشتراك في الحروف بين "flatus" و "Huffattich" [حشيشة السعال] .

الإنجليزي وقت حملة الأرمادا [التي شنها الأسبان] على إنجلترا ، وهي الحملة التي صك الإنجليزي بعدها « ميداليا » حفرها عليها تلك الكلمات : « ونفخ ، فتبعثروا » (١) ؛ لأن الريح قد بعثرت شمل الأسطول الإسباني (٢). ولكن تلك كلمات كنت قد فكرت نصف مازح في أن أتخذها عنواناً لفصل عن « العلاج » ، لو قد بلغت يوماً إلى أن أكتب شرحاً مفصلاً لنظريتي في المستريا وعلاجها .

وأما المشهد الثاني من الحلم فلست أستطيع الخوض فيه بمثل هذا التفصيل ، حاسباً للرقابة حسابها . فأنا أضع نفسي هنا في مكان سيد رفيع المقام من رجال ذلك العهد الثوري ، كانت له أيضاً مغامرة مع نسر [أدلر] ، وقيل إنه كان يعاني فقدان القدرة على ضبط الأمعاء ... الخ .. وأعتقد أنني لا أكون محقاً في تجاوز الرقابة هنا، وإن يكن الجانب الأكبر من تلك القصة قد رواه لي مستشار البلاط (Aula, conciliarius aulicus) (٣).
وأما سلسلة الحجرات فمشتقة من عربة القطار الخاصة بصاحب السمو والتي كنت أفلحت في أن ألتى نظرة عليها . ولكن الحجرات [Zimmer] - كما هو الحال غالباً في الأحلام - تعني أيضاً النساء [Frauenzimmer] (٤) - و « نساء مشاعة » في هذا المثال . وأما شخص الخادم فيومي إلى سيدة عجوز بارعة النكتة إيماء أجزئها به سوءاً على حسن ترحيبها وعلى القصص العديدة الطيبة التي كانت تغدق بها علي في منزلها . - وأما الإشارة إلى المصباح فترجع إلى جريلبارتسر (٥) الذي دون

[Flavit et dissipati sunt]

(١)

(٢) [١٩٢٥ :] أخذ على كاتب تطوع بتاريخ حياتي غير مرجو - هو الدكتور فريتس فويتلز أني حلفت اسم « يوه » من تلك الكلمات . [١٩٣٠ :] وإن المداليا الإنجليزية لتحمل اسم الرب بالحروف العبرية على صحابة في الخلف ، بحيث يستطع المرء أن يراها على أنها جزء من الرسم أو من تلك الكلمات على السواء .

(٣) ["Aula"] هي الاسم الذي كان يطلق على قاعات الاحتفالات الكبرى بالجامعة (أنظر مدير المشهد الثاني من الحلم) ومن معانيها في اللاتينية " بلاط الملك " . أما « مستشار البلاط » أو « مستشار ملكي » فترجمة حرفية للكلمة الألمانية " Hofrat " ، وهو لقب كان يمنحه الإمبراطور لكل من امتاز بخدمة طويلة مشهودة في وظائف الحكومة أو في الحياة العامة ، دون أن تمنى أن لصاحبها أقل صلة بالبلاط . [

(٤) [ومعناه بالحرف " حجرة النساء " لفظ جار يطلق في اللغة الألمانية - مع شيء من التحقير - على

النساء .]

(٥) [من أكبر كتاب النحس المسرحيين في القرن الماضي (١٧٩١ - ١٨٧٢) . لا تزال مسرحياته تمثل

إلى اليوم .]

حادثة ظريفة من نوع مماثل كانت قد وقعت له حقيقة ، ثم أدرجها بعد ذلك في مأساته « هير و لياندر » ^(١) (أمواج البحر والحب - الأرمادا والعاصفة) . ^(٢)

ولست أجد كذلك بدا من أن أمسك عن التحليل المفصل للجزئين الباقيين من هذا الحلم ^(٣) . وأكتفى بأن ألتقط تلك العناصر التي تقودنا إلى مشهدي الطفولة اللذين ما أخذت في مناقشة هذا الحلم على الإطلاق إلا من أجلهما . وسنحذر بحق أن هذا التكم قد ألحأت إليه مادة جنسية ، ولكننا لا نحتاج إلى أن نقف عند هذا التعليل قانعين ؛ فكثيرة هي الأمور التي يصارح بها المرء نفسه وإن واراها عن غيره اضطراباً . ثم إن المسألة لا تتعلق ههنا بالأسباب التي تحملني على أن أخفي الحل ، بل بدوافع الرقابة الباطنة التي أخضت المحتوى الصحيح للحلم عنى نفسى . وعلى ذلك لا أجد مناصاً من أن أقول : إن التحليل قد بين أن هذه الأجزاء الثلاثة [الأخيرة ، بعد الجزء الخاص باجتماع الطلبة والكونت الخطيب] إنما هي مباهاة سليطة ، دفقة من جنون باطل بالعظمة كبحت جماحه في حياتي المستيقظة زمنياً طويلاً ، واقتحمت بعض شعابه محتوى الحلم الظاهر نفسه (هيئى إلى أننى كثير الدهاء) ، ثم هو يجعلنا من غير شك نفهم أحسن الفهم ذلك المزاج الفائر المتعاطف الذى كنت فيه في المساء الذى سبق الحلم . وقد شملت المباهاة جميع الميادين ؛ فذكر [مدينة] جراتس - مثلاً - كان يرجع إلى تلك الحملة العامية : « ما ثمن جراتس ؟ » - وهى الحملة التي يعرب بها المرء عن اغتباطه إذ يشعر بوفرة المال . وكل من يذكر وصف رابليه المنقطع النظر في حياة جارجاتوا وابنه بانتاجرويل ^(٤) وأعمالهما

(١) [لياندر فتى من أبيدوس أحبه هير و - وكانت كاهنة لفينوس - أغرق نفسه في الدردنيل .]

(٢) [١٩١ :] لقد حاول سيلبر (١٩١٠) في مقال هام أن يدلل من هذا الجزء من حلمي على أن عمل الحلم لا يملك تمثيل الأفكار الكامنة وحدها ، بل كذلك العمليات النفسية التي تقع في خلال تكوينه (وهو ما يسميه « الظاهرة الوظيفية ») . [١٩١٤ :] بيد أننى أعتقد أنه يغفل بذلك تلك الحقيقة : وهى أن «العمليات النفسية التي تقع عند تكوين الحلم» إنما هى بالنسبة إلى مادة تشغل فكرى شأنها شأن غيرها . فن الواضح أننى أفخر فى هذا الحلم المتباهى بأننى قد اكتشفت تلك العمليات .

(٣) [إلا أن فرويد يحلل الجزء الأول منهما (ركوب العربة إلى المحطة) ، فيما بعد ص ٤٣١ .]

(٤) [من وقائع جارجاتوا الذائعة واقعة سوف يشار إليها في هذا الكتاب وهى أنه اعتل كنيسة نوتردام بباريس وبال على أهلها « بولا عنيفاً حتى أغرق منهم مائتين وستين ألفاً وأربعة مائة وثمانية عشر رجلاً عدا النساء والأطفال » . وله ولايته وقائع متعددة فى هذا الباب وما يعدله .]

سوف يدرج تحت باب المفاخرة ما أبحث إليه الفقرة الأولى من الحلم كذلك . ولكن ها هي ذى تلك المادة التى ينتسب إليها مشهدا الطفولة اللذين وعدت بهما: كنت قد اشتريت من أجل تلك الرحلة حقيبة جديدة ، ظهر لونها - وكان نبياً بنفسجياً - مرات متعددة فى الحلم (أزهار البنفسج ذات اللون البنى البنفسجى ، المصنوعة من قماش خشن ، بجانب شىء يسمى « مصيدة بنات »^(١)) ، ثم أثاث الحجرات الرسمية) . ونحن نعلم أن الأطفال يعتقدون أن كل جديد يجذب الأنظار . ولقد قص على هذا المشهد من مشاهد طفولتى الذى حلت روايته فى ذاكرتى محل ذكراه ، قيل : إننى وأنا فى الثانية من عمرى كنت لا أزال أبلبل فراشى بين الحين والحين ، وكنت إذا قرعنى والذى على ذلك عزيبته واعداء إياه بأن أبتاع له سريراً جميلاً جديداً أحمر اللون من ن . - وهى أقرب مدينة لها بعض الحجم إلينا . ومن هنا جاءت فى الحلم تلك الحملة الاعتراضية فيما يتصل بالمبولة الزجاجية ؛ اشتريناها من المدينة أو كان علينا شراؤها - إذا وعد المرء فقد حق عليه الوفاء . (ونلاحظ التجاور بين المبولة الزجاجية - رمز مذكر - والحقيبة أو الصندوق - رمز مؤنث [أنظر ص ١٧٨] .) إن كل جنون العظمة عند الطفل متضمن فى وعدى هذا . ولقد عرفنا من قبل ونحن نفسر حلماً سابقاً مدى ما يكون لصعاب الطفل المتصلة بالتبول من خطر فى الحلم [أنظر ص ٢٢٠] . كما أن التحليل النفسى للعصابيين قد علمنا مدى الارتباط الوثيق بين بلل الفراش وبين تلك السمة من سمات الطبع التى هى الطموح^(٢) .

ثم جاء بعد ذلك - وأنا فى السابعة أو الثامنة من العمر - مشهد عائلى آخر ما زلت أذكره أبين الذكر : فقد تغاضيت يوماً عما ينهى عنه الاحتشام من إجابة بعض الحاجات فى غرفة الوالدين وفى محضرمهم ، وكان أن ألقى والدى - وهو يقرعنى - بتلك الملاحظة : هذا الولد لن يصير شيئاً ما . ولا بد أن هذه كانت صدمة مروعة لطموحى ؛ فالإشارات إلى هذا المشهد لا تزال تترى فى أحلامى من غير انقطاع ، مصنخوبة بتعديد ما حققته وأصبت فيه نجاحاً ، كأنما أريد أن أقول : « أترى ؟ لقد صرت مع ذلك شيئاً . » وهذا المشهد الطفلى يزودنا الآن بالمادة التى نسجت منها صورة الحلم الأخيرة بعد أن تبودلت فيها الأدوار بدافع من الانتقام بالطبع : فالرجل العجوز - من الواضح أنه والدى ؛

(١) [تعبير بمعنى عريبيد أو قناص نساء .]

(٢) [الجملة الأخيرة قد أضيفت عام ١٩١٤ .]

وما يشير العور إلا إلى الجلوكوما التي أصابت عينا من عينيه^(١) - هو الذى يتبول الآن أمامى ، شأنى أمامه من قبل . ثم إن فى الجلوكوما تذكيراً لوالدى بالكوكابين الذى أعانه على احتمال العملية التي أجريت له [أنظر ص ١٩٣] ، كأنما كنت بذلك قد حققت وعدى . وأنا بالإضافة إلى ذلك أهزأ به : فهو أعمى ، وأنا لذلك مضطر إلى أن أمد له الزجاجاة ، ثم أسترسل فى تلميحات إلى مكشفاتى فى نظرية المستريا التي أنا فخور بها^(٢) . ولكن إذا كان مشهدا التبول المستمدان من طفولتى مرتبطين على أية حال بباب

(١) وتفسير آخر : إنه أعور مثل أودين ، أبى الآلهة [فى الأساطير الجرمانية] . - عزاء أودين [اسم رواية أسطورية كتبها Felix Dahn عام ١٨٨٠] . - تمزيق إياه فى مشهد الطفولة بوعده بشراء سرير جديد .
 (٢) وها هى ذى مادة تفسيرية أخرى : إن الإمساك بالزجاجاة يذكرنى بقصة الفلاح الذى ذهب إلى النظاراتى فظل يجرب الزجاجاة [أى العدسة] بعد الزجاجاة دون أن يستطيع القراءة . - (مصيدة فلاحين] ويقال للمحتال] - مصيدة بنات ، فى الفقرة السابقة من الحلم .) - المعاملة التي يلقاها الأب على أيدي الفلاحين بعد أن ضعف عقله فى رواية زولا « الأرض » - المقاصة الفاجعة حين أخذ والدى فى وأخر أيام حياته يوسخ الفراش بدوره كالطفل ، ولهذا كان أنى ظهرت ممرضاً . - « كان التفكير والخبرة الفعلية شيئاً واحداً هنا » . يذكرنى ذلك بمسرحية أدبية ذات طابع ثورى عنيف كتبها أوسكار بانيتسا ، فيها يلقي الأب - وقد تشكل فى صورة رجل عجوز مشلول - شر المعاملة ، و « كن » و « يكون » كأننا هنا شيئاً واحداً ، فكان على ملاك من ملائكته - أشبه بجانيميد [ساقى الآلهة فى الأساطير اليونانية] - أن يحول بينه وبين اللعن والسب وإلا تحققت دعواته على الفور . - وأما التفكير فى خطة فلوم موجه إلى والدى يرجع إلى فترة لاحقة فى نمو ملكتى النقدية . والحق أن كل محتوى الحلم بما فيه من تمرد ومن عيب فى الذات الملكية وانتقاص للسلطة العليا إنما يرجع إلى ثورة على والدى . فالأمير يدعى أباً الشعب ، والأب أقدم السلطات وأولها ، وهو بالنسبة إلى الطفل السلطة المفردة ، ومن هيئته المطلقة خرجت فى خلال تاريخ الحضارة سائر السلطات (اللهم إلا بالقدر الذى يقتضى به « النظام الأموى » تقييد هذه القضية) . - وجملة الحلم : « كان التفكير والخبرة الفعلية شيئاً واحداً » تتصل بتفسير الأعراض الهستيرية ، وهذه أيضاً تتصل المبولة الزجاجية . فلست أحتاج إلى أن أشرح لمن كان من أهل ثيبينا ما هو المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه اللعبة المسماة « Gachnas » : إنها تتلخص فى أن تتركب من مواد تافهة أو - وهو أفضل - مضحكة ، معدومة القيمة موضوعات تبدو فادرة غالية ، كأن تصنع درعاً من أوعية المطبخ والقش وأرغفة الخبز المكورة وغيرها - وهى تسلية يشغف بها فنانوننا فى سهراتهم البوهيمية . ولقد لاحظت أن الهستريين يجرون على تلك الوثيرة : فهم إلى جانب ما يقع لهم حقيقة يهينون لأنفسهم - لا شعورياً - أحداثاً متخيلة ، مروعة أو منرفة ، يركبونها من أقل خبراتهم ضرراً أو أكثرها ألفة . وأعراضهم ترتبط فى المرتبة الأولى بهذه التخيلات وليس بذكريات الأحداث الحقيقية ، سواء أكانت هذه أحداثاً جدية أم كانت أحداثاً خالية من الشأن . ولقد أعاننى هذا الكشف على كثير من الصعوبات ، وجلب لى سرورا لا يعدهل سرور . وأما الذى مكنتنى من الإلماع إلى هذا كله بوصاطة هذا العنصر من الحلم ، « مبولة الرجال الزجاجية » ، فهو ما سمعته عن ليلة « الكشناس » الأخيرة من أن كأساً سامية من كئوس لوكريس بورجيا قد عرضت فيها ، وكان هيكلها وأهم أجزائها مكوناً من مبولة زجاجية للرجال . ، من قبل ما يستعمل فى المستشفيات .

الحنون بالعظمة أوثق الارتباط ، فقد أعان بعد ذلك على تنبيههما في خلال رحلة أوسى ما اتفق من خلو مقصورتى من المرافق ومن أننى كنت أتوقع تلك الورطة ، مثلماً حدث بالفعل في الصباح : فقد استيقظت إذ ذاك وأنا أشعر بحاجة عضوية . وأغلب ظنى أننا قد نميل هنا إلى أن نرى في هذا الشعور العامل الذى أطلق الحلم فعلا . ولكننى أوتر وجهة نظر أخرى ، هى على التحقيق : أن الحاجة إلى التبول إنما بعثت عليها أفكار الحلم . فإنه لأمر غريب على كل الغرابية أن تزعجنى في أثناء النوم حاجة جسمية من أى نوع كانت ، وبخاصة في ذلك الوقت الذى استيقظت فيه - الثانية والخامسة والأربعون . ويبقى اعتراض آخر أذ دفعه بأن ألاحظ أننى لم أشعر قط في رحلات أخرى تحقق لى فيها من أسباب الراحة قسط أوفر بالحاجة إلى التبول بعد الاستيقاظ مبكراً . وليس يضيرنى على أية حال أن أترك تلك المسألة من غير بت .

ولما كانت خبراتى في تحليل الأحلام قد جذبت انتباهى إلى أنه حتى تلك الأحلام التى يبدو تفسيرها للوهلة الأولى أمراً مفروغاً منه لأننا اكتشفنا من غير عناء مصادرها والرغبات الحافزة إليها - تخرج منها هى الأخرى خيوط تمتد إلى أبعد عهود الطفولة ، فإنى لم أجد مفراً من أن أسأل : هل هذه الخاصة أيضاً شرط جوهرى من شروط الحلم ؟ ومعنى ذلك - إذا وضعنا القضية في صورة كلية - هو أن كل حلم يرتبط في محتواه الظاهر بخبرات حديثة العهد ، لكنه - في محتواه الكامن - مرتبط بأشد الخبرات قدما ، تلك الخبرات التى تمكنت من أن أبين بالفعل في تحليل المستريا أنها قد ظلت على حداتها بالمعنى الصحيح للكلمة حتى الزمن الحاضر . بيد أن هذا الظن ما زال يبدو بحق صعب البرهان غاية الصعوبة ، وسوف أعود في مناسبة أخرى (الفصل السابع [القسم ب ، ص ٥٤٣-٥٤٤]) إلى مناقشة النصيب المحتمل الذى تقوم به خبرات الطفولة المبكرة في تكوين الحلم . فإذا رجعنا إلى الخصائص الثلاث التى تتميز بها الذاكرة في الحلم والتى أخصبناها في مطلع هذا الفصل ، وجدنا أن الواحدة - تفضيل ما هو ثانوى في محتوى الحلم - قد لقيت حلا مرضيا بإرجاعها إلى تشويه الحلم . فأما الاثنتان الأخريان - تغليب الحديث والطفلى - فقد تأيد لنا وجودهما ، بيد أننا لم نتمكن من استنباطهما من الدوافع المؤدية إلى فعل الحلم . فلا ننسى هاتين الخاصيتين اللتين يبقئ علينا تعليهما أو تقديرهما ؟ فهما - لا محالة - واجدتان مكانهما في موضع آخر : إما في سيكولوجية حالة النوم ، أو

عند البحث في تركيب الجهاز النفسى - وهو البحث الذى سوف نشرع فيه حين نكون تعلمنا أن تفسير الحلم أشبه بِنافذة نستطيع أن نلقى منها نظرة إلى باطن هذا الجهاز [أنظر الفصل السابع] .

غير أن هناك نتيجة أخرى تلزم من تحليلات الأحلام السابقة ننبه إليها دون إهمال ، وهى : أن الحلم كثيراً ما يبدو الحلم حاصلًا على أكثر من معنى واحد . فهو كما يتبين من أمثلتنا - قد لا يقتصر على أن يحقق رغبات متعددة جنباً إلى جنب بل قد يتضمن فوق ذلك جملة من المعانى أو تحقيقات الرغبات يفترش كل منها غيره حتى نعثر فى القاع على تحقيق رغبة ترجع إلى أقصى عهود الطفولة . وهنا نسأل من جديد : أليس الأصدق هو أن نضع « دائماً » بدل « من الشائع » فى هذه القضية ؟ ^(١) .

ج

المصادر الجسمية للحلم .

لو أننا أردنا أن نبعث أحد المثقفين غير المختصين على الاهتمام بمشكلات الحلم ، فسألناه من أجل هذا الغرض أى المصادر تصدر عنها الأحلام فى زعمه ، لوجدنا فى معظم الأحيان أن من نسأله يظن أنه واثق كل الثقة من امتلاكه هذا الجزء من الجواب عن السؤال : فهو يفكر لفوره فى الأثر الذى يحدثه فى تكوين الحلم هضم معتل أو عسير (« الأحلام تأتى من المعدة » [أنظر ص ٦٠]) أو وضع يعرض للجسم أو حدث صغير يقع أثناء النوم ، وهو لا يظهر أبداً ولو ربية فى أننا إذا حسبنا لهذه العوامل جمعاء حسابها بقى بعدها شئ يقتضى مع ذلك إيضاحاً .

فأما النصيب الذى تعزوه المؤلفات العلمية إلى المصادر الجسمية للتنبه فى تكوين الحلم ، فذلك ما أطلنا فى تبيانه فى الفصل الذى قدمنا به (ص ٦٠) بحيث لا يحتاج

(١) إن تراكم معانى الحلم بعضها فوق بعض طبقات مشكلة من أدق مشكلات تفسير الحلم وإن تكن كذلك من أمتها . وكل من نسى هذه الإمكانية سهل عليه أن يفضل الصواب وأن ينقاد إلى قضايا لا يمكن الأخذ بها فى ماهية الحلم . ومع هذا فالأبحاث الموضوعية فى هذا الباب لا تزال قليلة غاية القلة . فاجد حتى الساعة من دراسة عميقة سوى تلك التى خصصها أوتو رانك (١٩١٤ أ) لتراكم الرمزي المنتظم إلى حد كبير فى الأحلام الناشئة عن منبه بول .

هنا إلى غير التذكير بنتائج ذلك البحث : لقد سمعنا أن هناك ثلاثة أنواع من المصادر الحسية للتنبيه تنبغى التفرقة بينها : المنبهات الحسية الموضوعية الناشئة عن موضوعات خارجية ، الحالات التهييجية الباطنة لأعضاء الحواس - وهذه ليس لها إلا أساس ذاتي - ثم المنبهات الحسية المنبعثة من باطن الجسم . ولاحظنا بالإضافة إلى ذلك نزوع المؤلفين إلى أن يهوفوا من قيمة كل مصدر نفسى للحلم بجانب هذه المنبهات الحسية ، أو إلى أن يستبعلوها جملة (ص ٨٧) . فلما فحصنا ما يدعى لهذه المنبهات الحسية من شأن ، اتبيننا إلى أن قيمة المنبهات الموضوعية لأعضاء الحس - وبعضها عارض في أثناء النوم وبعضها يستحيل تجنب النفس إياه ولو كانت نائمة - أمر تثبته الملاحظات المتعددة ويؤيده التجريب (ص ٦٢) ، وأما نصيب التهييجات الحسية الذاتية فيثبته - فيما يبدو - رجوع الصور الحسية قبل النوم في الأحلام (ص ٦٨) ، وأخيراً فإن ما يقال على إطلاقه من رجوع صور الحلم وأفكاره إلى منبهات جسمية باطنية أمر يستحيل قطعاً لإثباته في كل مداه ، ولكنه قد يجد مع ذلك سنداً فيما هو معروف من تأثير حالات التهييج الذى يصيب أعضاء الهضم والتبول والإنسال في أحلامنا [ص ٧٤] . وهكذا يكون « التنبيه العصبى » و « التنبيه الحسى » هما المصدران الحسىان للحلم ،

أى - في رأى كثير من الكتاب مصدراه الوحيدان على الإطلاق . غير أننا قد سمعنا أيضاً أصواتاً تعرب عن عدد من الشكوك ، وإن كان من الحق أن هذه الشكوك لا تبلى وجهة إلى صحة نظرية التنبيه الحسى ، بل إلى كفايتها .

فهما كان من ثقة المتصرين لهذه النظرية من ناحية أسسها الواقعية - وعلى الأخص فيما يتعلق بالمنبهات العصبية الخارجية العارضة التى يسهل قفوها في محتوى الحلم دون ما عناء - فما غاب عن أحدهم أن في الأحلام من ثراء المحتوى الفكرى ما يستحيل تفريعه من المنبهات العصبية الخارجية وحدها . ولقد مكثت الآنسة مارى هويتون كالكنيز ستة أسابيع تبحث من هذه الوجهة أحلامها وأحلام شخص آخر ، فلم تجد على الترتيب سوى ١٣,٢ و ٦,٧ من المائة حلماً أمكن فيها الاهتداء إلى عنصر الإدراك الحسى الخارجى ، ولم يكن في المجموعة كلها سوى حلمين أمكن إرجاعهما إلى إحساسات عضوية . فالإحصاء يؤيد هنا ما قد ختمته من نظرة عاجلة إلى خبراتى الخاصة .

وكثيراً ما يرتأى البعض أن تفصل أحلام « التنبيه العصبى » - باعتبارها نوعاً سافلاً

من الأحلام تمت دراسته دراسة وافية—من سائر أشكال الحلم . ومثال ذلك شبيتا إذ يقسم الأحلام قسمين : أحلام تنبيه عصبى وأحلام تداع . بيد أن من الواضح أن ذلك سوف يظل حلاً غير مرض ، ما دمنا لا نفلح في تبيان الرباط بين المصادر الجسمية للحلم وبين محتواه الفكرى .

وهكذا ينهض إلى جانب الاعتراض الأول : أن المصادر الخارجية للتنبيه ليست كثيرة الوقوع الكثيرة الكافية — ينهض اعتراض ثان : أن تعليل الأحلام التى تأتى بوساطة مثل هذه المصادر ليس بالتعليل الكافى . ذلك لأن أنصار هذه النظرية مدينون لنا بإيضاحين : الأول : لم كان المنبه الخارجى لا يُعرّف فى الحلم على طبيعته الحقة ، بل يعرف دائماً معرفة خاطئة (أنظر أحلام جرس المنبه فى ص ٦٥) ؟ والثانى هو : لم كانت استجابة النفس النائمة لهذا المنبه الذى يعرف معرفة خاطئة تتنوع كل هذا التنوع الذى لا ضابط له ؟ لقد سمعنا شرومبل يقول فى الإجابة عن هذا السؤال : إن النفس وقد انصرفت فى أثناء النوم عن العالم الخارجى لم تعد قادرة على أن تفسر المنبهات الموضوعية الحسية تفسيراً صحيحاً ، بل هى مضطرة إلى أن تشيد أوهاماً حسية على ما يصل إليها من تنبيه مبهم فى كثير من نواحيه ، أو بعبارة هو (١٨٧٧ ، ١٠٨) :

« إنه ما أن يستثار فى النفس النائمة — نتيجة لمنبه عصبى خارجى أو باطنى — إحساس أو مركب من الإحساسات أو انفعال أو أية عملية نفسية بوجه عام ، وما أن تترك العملية المستثارة على هذا النحو بوساطة النفس — حتى تستدعى العملية صوراً حسية تستمد من نطاق خبرات اليقظة المتخلفة فى النفس ، أى مدركات سابقة ، تجيء إما مجردة من قيمتها النفسية التابعة لها وإما مصحوبة بها . وهكذا تحيط العملية نفسها بعدد يزيد أو ينقص من أمثال تلك الصور التى من طريقها يكتسب الانطباع الناشئ عن المنبه العصبى قيمته النفسية . ونحن نقول هنا (مثلما اعتدنا أن نفعل فيما يتصل بسلوك اليقظة) إن النفس تفسر الانطباعات الناجمة عن المنبه العصبى . ونتيجة هذا التفسير هى ما نسميه حلم تنبيه عصبى ، أى حلماً تحتتمت مقوماته بوساطة منبه عصبى ، أحدث أثره النفسى فى النفس النائمة وفقاً لقوانين الاستحضار . »

ويطابق تلك النظرية مطابقة جوهرية قول فونت : إن أفكار الحلم يصدر الجزء الأعظم منها على الأقل عن منبهات حسية ومنبهات الحساسية العامة بالجسم بنوع خاص ،

ولهذا كان معظمها أوهاماً تخيلية ولم تكن إلا إلى حد ضئيل في الراجح ذكريات خالصة اشتدت إلى درجة الهلاوس . ولقد عثر شرومبل على تشبيه موفق للعلاقة التي تخلص من هذه النظرية بين محتوى الحلم ومنبهاته ، وذلك إذ يقول : « إن الأمر يبدو كأن رجلاً لا يملك أقل معرفة بالموسيقا قد أجال أصابعه العشرة على مفاتيح المعزف . » وهكذا لا يكون الحلم بحسب تلك النظرة ظاهرة نفسية تقوم على دوافع نفسية ، بل نتيجة لتنبية فيزيولوجي أعربت عنه أعراض نفسية ؛ لأن الجهاز الذي أصابه المنبه لا يملك أية صورة أخرى من صور التعبير . وعلى مسلمة مماثلة يقوم - مثلاً - التشبيه الذائع الذي أراد ماينيرت أن يعلل الأفكار القهرية بوساطته : ميناء الساعة تبرز عليها بعض الأرقام لأنها قد زيدت تحديداً .

غير أنه مهما كان التحجيز الذي صارت تنعم به نظرية التنبية الجسماني ومهما بدا من جذبها ، فمن الهين كذلك أن نبين موطن الضعف فيها . فكل منبه من منبهات الحلم الجسمية التي تحت الجهاز النفسى النائم على تفسيرها بتشييد الأوهام يستطيع أن يطلق عدداً لا يحصى من أمثال هذه المحاولات التفسيرية ، وأن ينتهى بذلك إلى أن تمثله في الحلم أفكار لا حصر لها^(١) . ولكن نظرية شرومبل وفونت تعجز عن أن ترينا أى دافع يضبط العلاقة بين المنبه الخارجى وبين فكرة الحلم المختارة لتفسيره ، أى عن أن تعلل « هذا الاختيار العجيب » الذى كثيراً ما تبديه المنبهات « في خلال نشاطها المنتج » (ليس ، ١٨٨٣ ، ص ١٧٠) . ثم هناك اعتراض آخر يمتد إلى المسلمة التي تنبئ عليها نظرية الوهم بأسرها ، وهي المسلمة القائلة بأن النفس حين تنام تفقد القدرة على تعرف الطبيعة الحقيقية للمنبهات الموضوعية الجسمية : فقد بين الفيزيولوجى بورداخ منذ زمن طويل أن النفس تملك في النوم كذلك قدرة تامة على أن تفسر ما يصل إليها من الانطباعات الجسمية تفسيراً صحيحاً ، وعلى أن تستجيب بما يتفق وهذا التفسير الصحيح ، وذلك حين ذكر بأن في وسع الإنسان أن يستثنى من الإهمال الذى يشمل الانطباعات الجسمية عند النوم تلك الانطباعات التي تبدو له ذات بال (الموضع والطفل) ، وأن استيقاظ المرء على صوت اسمه أوثق كثيراً من استيقاظه على انطباع سمعى آخر لا يهمه في شيء وكل هذا يتضمن

(١) لقد أخرج مورلى فولد مجلدين يحتويان على وصف دقيق مفصل لطائفة من الأحلام أحدثها بالتجريب ، مجلدين أشير على كل قارئ بدراساتهما ؛ حتى يقتنع بفساد الفرض الذى تلقىه الشروط التجريبية الموصوفة في هذين المجلدين على محتوى الأحلام الجزئية ، ثم بقلة غناء أمثال هذه التجارب عامة في فهم مشاكل الحلم .

من غير شك أن النفس تفرق في النوم كذلك بين الإحساسات (الفصل الأول ص ٨٨) .
ويخلص بورداخ من هذه الملاحظات إلى أن ما ينبغي افتراضه في خلال حالة النوم ليس
العجز عن تفسير المنبهات تفسيراً صحيحاً ، بل نقص الاهتمام بها . وهذه الحجج التي
استخدمها بورداخ عام ١٨٣٠ تعود هي هي عام ١٨٨٣ عند ليبس في نقده لنظرية
التنبية الجسماني . وهكذا تبدو النفس مثلها مثل الحالم الذي تحكى عنه الحكاية ؛ فقد
سأله سائل : « هل أنت نائم ؟ » فأجابه : « كلا » ، فلما أتى السائل : « إذن أقرضني
عشرة ريالاً » تعلق قائلاً : « إنني نائم » .

ومن الممكن أن نثبت عدم كفاية نظرية التنبية الجسمي بطرق أخرى . فالملاحظة
تظهر أن المنبهات الخارجية لا تدفعني إلى الحلم دفعاً وإن كانت هذه المنبهات تظهر في
الحلم بمجرد ما أحلم وإذا ما حلمت . ودعنا نفترض أن منبهاً من المنبهات ، بضغط أو
بلمس ، قد عرض لي في أثناء النوم : إن في متناولي أن أستجيب له باستجابات مختلفة :
فأنا أستطيع أن أغض الطرف عنه لكي أكتشف حين أستيقظ أن ساقاً من ساق قد
تعرت أو أن ساعداً قد ضغط - وفي علم الأمراض شواهد موفورة على أن منبهات حسية
أو حركية شديدة التهييج ، مختلفة النوع قد تلبث دون أن تحدث أثراً في خلال النوم .
ثم أنا قد أستشعر هذا الإحساس وأنا نائم ، أستشعره « من خلال » النوم ، كما نقول ،
(وتلك هي القاعدة في حالة المنبهات المؤلمة) ولكن دون أن أنسج من الألم حلماً . وفي
استطاعتي - ثالثاً - أن أستجيب لهذا المنبه بالاستيقاظ لكي أتخلص منه ^(١) . وأما أن
يسوقني المنبه العصبي إلى الحلم - فإن هذا إلا احتمال رابع ، يقع ، ولكن الاحتمالات
الأخرى تقع أيضاً بمثل كثرته على الأقل . وما كان ذلك ليكون لولا أن الدافع إلى الحلم
يكمن خارج المصادر الجسمية للحلم .

وقدر بعض الكتاب - وأعني به شرزر والفيلسوف فولكلت الذي تابعه - قدروا
شأن تلك الثغرات التي عينت عليها الآن في تحليل الحلم بواسطة المنبهات الجسمية تقديراً
صائباً ، فحاولوا أن يعرفوا بمزيد من الدقة ما هي أوجه النشاط النفسي التي تؤدي

(١) أنظر مقالة لانداور عن السلوك في أثناء النوم (١٩١٨) . وإن في استطاعة كل منا أن يلاحظ
أناساً نائمين وهم يقومون بأفعال ذات دلالة واضحة . فالإنسان لا يرتد عند النوم إلى البلبه المطلق ، إنه - على
العكس - يظل قادراً على الإتيان بأفعال منطقية متعمدة .

إلى نشوء صور الحلم المتقلبة من المنبهات الحسية ، أى أن يعودوا بماهية الحلم فيقيموها من جديد في النفس وفي نشاطها . فشرنر لم يكفه أن يترك لنا وصفا يزخر بالإحساس الشاعرى ويفيض حياة للخصائص النفسية المتجلية في تكوين الحلم ، بل هو قد اعتقد فوق ذلك أنه اكتشف المبدأ الذى تسلك النفس بمقتضاه حيال المنبهات التى تعرض لها ، وهذا المبدأ هو : إن عمل الحلم - وقد أطلقت الخيلة فيه من قيود النهار - ينزع إلى تصوير العضو الذى ينبعث منه المنبه وكذلك طبيعة هذا المنبه تصويراً رمزياً . وهكذا يخرج لنا ما يشبه أن يكون كتاباً من كتب الأحلام ، مرشداً إلى تفسيرها ، به يتسنى لنا أن نستدل من صور الحلم على أحاسيس الجسم وحالة الأعضاء وطبيعة المنبهات . «فصورة القط تعرب عن مزاج مستاء غضوب ، بينما تعرب صورة الحبز الأملس الفاتح اللون عن عرى الجسم . والجسم الإنسانى في مجموعه تصوره تخيلة الحلم في صورة منزل وتصور كل عضو منه بجزء من أجزاء المنزل . وفي (الأحلام ذات المنبه السنى) يقوم بهو مرتفع السقف مقوسه مقام الفاه ، ويقوم سلم مقام الطريق النازل من الحلق إلى البلعوم . وأما (أحلام الصداق) ففيها يصور أعلى الرأس سقف غطته عناكب شبيهة بالصفادع السامة ، تبعث أشكالها على الغثيان » (فولكلت ١٨٧٥ ، ٣٩) . وينوع الحلم فيختار من هذه الرموز العدد الكبير للدلالة به على ذات العضو ؛ فالرثان وهما تنفسان قد تجدان رمزهما في موقد استعر لهبه وصار له حفيف ، بينما يجده القلب في صناديق أو سلال خاوية ، وتجده الكلية في موضوعات مستطيلة تشبه الأكياس أو مجوفة وحسب بوجه عام . والمهم بنوع خاص هو أن العضو الذى أثار الحلم - أو وظيفة هذا العضو - كثيراً ما يتكشف في ختام الحلم صراحة ، ويتكشف في معظم الأحيان في جسم الحالم نفسه ، وهكذا ينتهى عادة الحلم الناجم عن منبه سنى بأن يرى الحالم نفسه وهو يخلع سنا من فيه « (ص ٣٥) . ولا يستطيع المرء أن يقول : إن هذه النظرية قد لاقت من المؤلفين ترحيباً كثيراً . فالغرابة أظهر ما فيها ، حتى أن الكتاب ترددوا في أن يسلموا لها ولو بهذا القسط من الوجاهة الذى نرى أنه حق لها . فهى تؤدى - كما نرى - إلى أن يبعث من جديد تفسير الأحلام بوساطة الرموز - وهو المنهج الذى اتبعه القدماء - سوى أن النطاق الذى تؤخذ منه التفسيرات قد حد بحدود الجسم الإنسانى نفسه . ثم إن خلو نظرية شرنر من كل نهج في التفسير نستطيع تعقله بأسلوب علمى قد ضيق من غير شك إمكان تطبيقها تطبيقاً عظيماً . وأما الاسترسال مع

الهوى فى تفسير الحلم فلا يبدو أن تلك النظرية تمنحه مجال من الأحوال ، وبخاصة أن من الحائز - هنا أيضاً - أن يظهر المنبه الواحد فى محتوى الحلم بصور شتى ، وهكذا عجز أيضاً تلميذ شرزر ، فولكلت ، عن أن يؤيد ظهور الجسم فى صورة المنزل . واعتراض آخر لا بد منه ، وأعنى به أن النفس تودع مرة أخرى القدرة على الحلم وكأنها أودعت شيئاً لا نفع منه ولا غاية له ؛ فالنفس تقنع فى تلك النظرية التى نحن بصدددها بأن تحيك التخيلات حول المنبهات التى تشغلها ، دون أقل إشارة إلى وظيفة تستهدف التخلص من تلك المنبهات .

بيد أن هناك اعتراضاً آخر ينال نيلاً بالغاً من نظرية شرزر فى أن الحلم يعبر عن المنبهات الجسمية تعبيراً رمزياً : فهذه المنبهات قائمة فى كل وقت ، ومن الأمور المتفق عليها أن النفس أشد إحساساً بها فى النوم منها فى يقظتها ؛ وعلى ذلك كنا لا نفهم لم لا تحلم النفس طيلة الليل كله من غير انقطاع ، بل لم لا تحلم فى كل ليلة بجميع الأعضاء . لقد نحاول تجنب هذا الاعتراض ، فنقول : إنه لكى يستثار نشاط الحلم فلا بد من أن تصدر عن العين والأذن والأسنان والأحشاء وغيرها من الأعضاء تهيجات عدا المألوفة . وعندئذ نواجه صعوبة أخرى ، ألا وهى أن نثبت وقوع هذا الاشتداد فى التنبيه - وهو ما لا يتسنى إلا فى عدد قليل من الحالات . فلو أن أحلام الطيران كانت رمزاً للرثين حين تعلقان وحين تهبطان ، لكان الواجب - كما لاحظ شرومبل - أحد أمرين : فإما أن يكون لهذه الأحلام من كثرة الوقوع ما يزيد عن المألوف زيادة كبرى ، وإما نثبت أن النشاط التنفسى قد اشتد فى أثنائها . وهناك بعد احتمال ثالث هو أرجح الاحتمالات جميعاً ، وأعنى به أن دوافع خاصة قد تعمل عملها فى هذه اللحظة أو تلك فتجذب الانتباه إلى الإحساسات الأحشائية القائمة فى كل وقت ، ولكن ذلك احتمال يحملنا إلى ما وراء نظرية شرزر .

إن القيمة التى لأفكار شرزر وفولكلت تقوم فى كونها تجذب الانتباه إلى عدد من الخصائص التى يتميز بها محتوى الحلم - وهى خصائص تتطلب تعليلاً وتبدو تبشر باكتشافات جديدة . فمن الحق كل الحق أن الأحلام تحمل فى طياتها رموزاً ترمز لأعضاء الجسم ووظائفه : أن الماء فى الحلم يشير كثيراً إلى منبه بولى ، وأن أعضاء التناسل عند الذكر قد تصور بعضاً مثبتة تثبيتاً عمودياً أو بعمود أو بما أشبه . والأحلام التى يزدحم

فيها الحقل البصرى بالحركة وبالألوان الزاهية - على خلاف ما يسود بعض الأحلام الأخرى من قئمة - هذه الأحلام لا نكاد نستطيع تفسيرها بغير كونها «أحلاماً ذات منبه بصرى» ، ولا نحن نستطيع أن ننازع في دخول الأوهام الحسية في الأحلام التى تحوى ضوضاء ولغظا . فحلم كالذى يرويه شرزر عن فريقين من الصبية الحسان الشقر اصطفوا على جسر فى صفيين متقابلين ، أخذ كل منهما يهجم على الآخر ثم يعود إلى موضعه ، إلى أن يرى الحالم نفسه فى النهاية وقد جلس على جسر وهو يخلع سنا ، أو حلم كالذى يرويه فولكلت ، كان لصفين من الأدرج شأن فيه وانتهى مرة أخرى بسن يخلع - أحلام كهذه يورد منها هذان المؤلفان العدد الوفير لا تسمح لنا بأن ننبذ نظرية شرزر كما لو كانت اختراعاً لا طائل منه دون أن نبحت لها الطيب . ومهمتنا إذن هى أن نجد تعليلاً من نوع آخر للتعبير الرمزى المفترض عما يقال إنه منبه سنى .

لقد امتنعت طيلة هذا الوقت الذى شغلنا فى أثنائه بنظرية المصادر الجسمية للحلم عن استخدام الحجة التى تلزم من تحليلاتنا للأحلام . فلو قد تسنى لنا بطريقة لم يطبقها سائر المؤلفين على المواد المتجمعة عندهم عن الأحلام أن نثبت أن للحلم قيمته الخاصة من حيث هو فعل نفسى ، وأن الدافع إلى تكوينه رغبة ، وأن خبرة اليوم السابق تمده بأقرب مادة يبنى منها محتواه ، فإن كل نظرية أخرى فى الحلم تغفل طريقة فى البحث تلك أهميتها وتظهر الحلم من ثم فى صورة استجابة نفسية ، معدومة القيمة ، معماة ، إزاء بعض المنبهات الجسمية - هى نظرية مقضى عليها من غير حاجة إلى نقد خاص . هذا ، وإلا يجب أن يكون ثمث نوعان من الأحلام مختلفان أكبر الاختلاف ، مر أحدهما بى وحدى ومر الآخر بالبحثة السابقين وحدهم - وهو أمر بعيد كل البعد عن الاحتمال . والذى يبقى علينا - إذن - إنما هو أن نجد فى نطاق نظريتنا عن الحلم مكاناً للوقائع التى قامت عليها النظرية السائرة ، نظرية التنبية الجسمى للأحلام .

لقد خطونا بالفعل الخطوة الأولى فى هذا الاتجاه حين سقنا تلك القضية ، وهى : أن الحلم يعمل مدفوعاً إلى أن يصوغ فى وحدة كل حوافز الحلم الناشطة فى وقت واحد (ص ٢٠٠) . وكنا رأينا أنه إذا تخلفت من اليوم السابق خبرتان أو أكثر من الخبرات القادرة على أن تستثير انطباعاً فإن الرغبات المتفرعة عن هذه الخبرات تدمج فى حلم واحد ، ورأينا كذلك أن الانطباع ذا القيمة النفسية يدرج فى مادة الحلم إلى جانب خبرات اليوم

السابق التافهة ، بشرط أن يتسنى إيجاد أفكار تصل ما بينهما . وهكذا يبدو الحلم استجابة لكل ما يجتمع حضوره في النفس حضوراً ناشطاً . فمادة الحلم – بقدر تحليلنا لإياها حتى الآن – قد رأينا أنها مجموعة من البقايا النفسية والآثار الذكورية ، اضطرتنا (لما بدا من إثارة المادة الحديثة والطفلية) إلى أن ننسب إليها صفة نفسية تركناها حتى الآن من غير تحديد ، هي صفة الحضور الناشط . وعلى ذلك كنا لا نصادف كبير حيرة في أن نتنبأ بما يقع إذا ما جاءت مادة جديدة – هي الإحساسات – فانضافت في خلال النوم إلى هاته الذكريات الحاضرة حضوراً ناشطاً : إن هذه التهيجات الحسية سوف تكتسب هي الأخرى أهمية بالنسبة إلى تكوين الحلم لكونها حاضرة حضوراً ناشطاً ، وهي سوف توحد مع ما عداها من المواد النفسية ذات الحضور الناشط من أجل تزويد الحلم بالمادة التي تلزم تكوينه . وبعبارة أخرى : إن المنبهات التي تقع في خلال النوم سوف تصاغ بحيث يخرج منها تحقيق رغبة تتكون سائر مقوماته من بقايا النهار النفسية التي نعرف أمرها . ولكن هذا التوحيد أو الإدماج لا يحدث ضرورة، فقد رأينا أن المنبهات الجسمية التي تقع في أثناء النوم يمكن التصرف إزاءها بأكثر من طريقة . فإن حدث ، لم يكن ذلك إلا لأن الوصول إلى مادة تستطيع أن تمثل كلا مصدرى الحلم – الجسمي والنفسى – قد تيسر .

وليس يغير من ماهية الحلم في شيء أن تضاف مادة جسمية إلى مصادره النفسية ؛ فالحلم يظل تحقيق رغبة أيا كانت الطريقة التي يتم عليها تحتم الصورة المفضحة عن هذا التحقيق بوساطة المادة الحاضرة حضوراً ناشطاً .

وإني أفسح المجال هنا لطواعية لطائفة من العوامل التي من شأنها أن تحدد مدى ما يكون للمنبهات الخارجية من الأهمية بالنسبة إلى الحلم ؛ فأني يسلك المرء على هذا النحو أو ذاك في حالة بعينها من الحالات التي يشتد فيها التنبيه الموضوعي في أثناء النوم اشتداد نسبياً ، ذلك – كما أتصوره – أمر تحدده مجموعة متأثرة من عوامل فردية ، فيزيولوجية ، عارضة ، تنشأ عن ملابسات الساعة : فعمق النوم عمقاً مألوفاً أو عارضاً – مأخوذاً في علاقته بشدة المنبه – سوف يتيح في حالة قمع المنبه بحيث لا يزعج النائم ويضطر النائم في حالة أخرى إلى الاستيقاظ أو يؤيد محاولته في أن يسكت المنبه بإدخاله في نسيج حلم من الأحلام . وعلى حسب هذه التراكيب المتعددة الممكنة فإن الإفصاح

عن المنبهات الخارجية الموضوعية في صورة حلم سوف يكثر عند هذا الشخص - أو يقل - عنه عند ذلك . فأما فيما يتعلق بي - أنا الذى أنام نوماً ممتازاً وأرفض رفضاً عنيداً أن أنزعج في خلال النوم لأية علة كانت - فيندر كل الندرة أن تجد العلل الخارجية للتنبه منفذاً إلى أحلامي ، في حين يتضح أن الدوافع النفسية تجعلني أحلم في سهولة لا مزيد عليها . والحق أني لم ألحظ إلا حلماً واحداً يمكننا أن نتعرف فيه على منبه موضوعي أليم ، ويفيدنا فائدة كبرى أن نبحث أى أثر أحدثه المنبه الخارجى في هذا الحلم بالذات .

أركب حصاناً رمدى اللون ، أركبه أول الأمر في وجل ومن غير مهارة كما لو كنت لا أفعل سوى التعلق به . أقابل أحد الزملاء ، ب . ، وقد امتطى جواده عالياً ، مرتدياً حلة من الصوف . يجذب ب . نظري إلى شيء ما (لهله سوه ركوبى) . أراي الآن أحكم ركوب جواي ذى الذكاء الخارق إحكاماً متزايداً ، فأستقر عليه مستريحاً ، وألحظ أنني أجدني على صهوته كما لو كنت في داري . يقوم مقام السرج عندي شيء يشبه الحشية ، يشغل كل المسافة بين عنق الجواد ومؤخره . أجرى على هذا النحو بين عربتين . بعد أن قطعت شوطاً من الطريق أستدير وأريد النزول أول الأمر عند كنيسة صغيرة ، مفتوحة ، تقوم في مواجهة الطريق . ثم بعدئذ أزل بالفعل أمام كنيسة أخرى تقترب من الأولى . كان فندق يقع في الطريق نفسه ، وكان يسعني أن أترك الحصان يذهب إليه بمفرده . ولكنني آثرت أن أقوده إليه . كأنما كان على أن أستشعر اللجل إذ أصل إلى هناك راكباً . يقف أمام الفندق غلام يطلعي على مذكرة لي عثر عليها ، وهزأ بي من جرائها . كان مكتوباً على المذكرة - وقد خط سطران تحت ما كتب : « لا أكل » ، ثم جملة ثانوية (غير متميزة) مثل : « لا عمل » . تصعب ذلك فكرة مبهمة مؤداها أنني في مدينة غريبة لا أعمل فيها شيئاً .

إن المرء لا يفطن للوهلة الأولى إلى أن هذا الحلم قد جاء بتأثير من منبه أليم ، أو - على الأصح - تحت إكراهه . ولكنني كنت منذ بضعة أيام أعاني خراجات جعلت على من كل حركة عذاباً . وأخيراً ظهر في كيس الخصيتين خراج بحجم التفاحة ، فكان سبباً في ألم لا يطاق مع كل خطوة أخطوها . وحالف الألم على تنغيص كلال محموم وفقدان للشهية ثم عمل النهار المضني الذى مضيت رغم ذلك فيه . ولم أكن أملك كل القدرة على أداء تبعاتى الطيبة ، ولكن من السهل - وتلك طبيعة العلة وموضعها - أن نتصور عملاً آخر ، كنت من غير شك أقل صلاحية له منى لأى عمل سواه ، وأعنى به : الركوب . وذلك على التحقيق هو النشاط الذى يسلمني الحلم إليه . لذلك أقوى إنكار للمرض يستطيع أن يذهب إليه الخيال ! والحق أني لا أعرف الركوب ولا حلمت به غير هذا الحلم ، كل الأمر أني أجلس على حصان مرة في حياتي وكان الحصان بغير سرج ولم أجد في ذلك متعة . ولكنني أركب في هذا الحلم ، كأن لم يكن عندي خراج فيما بين الفخذين أو - على الأصح - لأنني لا أريد أن يكون ثمت خراج .

وما السرج الذى جلست عليه - إذا حكمنا استناداً إلى وصفه - إلا الكمادة التى أعانتنى على النوم . وأغلب الظن أنى - وقد هدأتى فعلها - لم أستشعر الألم فى خلال الساعات الأولى من النوم . بيد أن الإحساسات المؤلمة أخذت بعدها فى الظهور عاملة على إيقاظى ، فأتى عندئذ الحلم يقول مهونا : « امض فى سباتك فما بك من حاجة إلى الاستيقاظ ، وما بك خراج ، فأنت تركب جوادا وما يستطيع امرؤ الركوب لو كان يشكو خراجاً فى مثل هذا الموضع ! » ونجح الحلم فى مأربه ، فأخرس الألم ومضيت فى نوى .

ولكن الحلم لم يكفه أن « يوحى إلى » زوال الخراج ، بالإلحاح على فكرة لا تتفق مع الألم الذى كنت أعانيه ، متخذاً فى ذلك مسلك الهجاس الهلوسى الذى تسلكه الأم فقدت ولدها^(١) أو التاجر ضيعت خسائره ثروته . كلا ، بل إن تفاصيل الإحساس المراد استبعاده وتفاصيل الصورة التى استخدمت فى كبت هذا الإحساس قد أفادت الحلم هى الأخرى من حيث كانت أداة توصل بها الحلم إلى أن يربط بالموقف الذى ظهر فيه سائر ما كان حاضراً فى النفس حضوراً ناشطاً وتوصل بها إلى تصويره . فأنا أركب حصاناً رمادى اللون ، ولون الحصان هو لون الحلة التى كان يرتديها صديقى ب . حين قابلته أخيراً فى الريف : لون الملح والفلفل . ولقد عزوت خراجاتى إلى أننى كنت أكلت طعاماً زخر بالتوابل - وهو تحليل أقل ما يقال عنه هو أنه يفضل مرض السكر الذى قد يتجه الذهن إليه أيضاً بمناسبة الخراجات . وصديقى ب . يجب أن يركب جواده العالى معى^(٢) منذ أن خلفنى لدى مريضة من المريضات كنت قد أظهرت فى علاجها الأفانين (كنت فى أول الحلم أركب الحصان من جانب واحد مثلما يفعل راكب متضن) ، ولكنها فى الحقيقة - مثل الجواد فى قصة فارس الأحد^(٣) - كانت تقودنى حيثما تشاء .

(١) أنظر الفقرة الواردة عند جرايزنجر [والمشار إليها فى ص ١٢٢] ، وكذلك الملاحظات الواردة فى مقالتي الثانية عن الأعصاب النفسية الدفاعية (فرويد ١٨٩٦ ب) .

(٢) [تعبير يقال كناية عن الاستعلاء والمباهاة .]

(٣) [بين خطابات فرويد إلى فليس (فرويد ١٩٥٠ أ) خطاب يتحدث فيه عن « المبدأ المعروف ، مبدأ إيتسج فارس الأحد : إيتسج ، إلام أنت راكب ؟ لا تسألنى ، أسأل الحصان ! »]

وهكذا صار الحصان يرمز للمريضة (كان خارق الذكاء في الحلم) . وأما جملة « أحسن أنى على صهوته كما لو كنت في داري » فتشير إلى المكائنة التي كنت أشغلها في منزل هاته المريضة قبل أن يخلفنى فيه ب . وكان أحد القلائل من ذوى الفضل على بين كبار أطباء هذه المدينة قد قال لى منذ زمن غير بعيد وهو يشير إلى هذا المنزل : « كنت أظنك ثابتاً على السرج هناك » . ثم أن أقوم بالتطبيب النفسى من ثمانى إلى عشر ساعات في اليوم وبى كل هذا الألم – ذلك أيضاً كان فعل رجل مفن^(١) . غير أنى كنت أعلم أنى لن أستطيع مواصلة عملى الجلم الصعوبة بغير عافية مكتملة ، والحلم ملء بالإشارات العابسة إلى ما ليس بد من حلوته عندئذ (المذكورة ، مثل المذكرات التي يحملها مرضى النوراستانيا لكى يُروا الطبيب إياها) : لاعمل ، لا أكل . وحين واصلت تفسير الحلم رأيت أن عمل الحلم قد أفلح في أن يجد طريقاً يمتد من الموقف المرغوب فيه ، موقف الراكب ، إلى مشاهد شجار ترجع إلى طفولتى المبكرة ، مشاهد لا بد أنها وقعت بينى وبين ابن أخ لى يعيش اليوم فى إنجلترا ، وكان بعد يكبرنى بعام واحد . والحلم فوق ذلك قد استمد بعض عناصره من رحلاتى إلى إيطاليا : فالشارع قد تركب من انطباعات من فيرونا وسينا ، ثم إن تعمق التفسير إلى أبعد من ذلك يسوق إلى أفكار جنسية ، وإنى لأتذكر ماذا كانت تعنيه الإشارة إلى إيطاليا فى أحلام مريضة لم تكن قد رأت قط هذا البلد الجميل (gen Italien [إلى إيطاليا] – Genitalien [الأعضاء التناسلية]) ، ولم يكن ذلك أيضاً بغير ارتباط بالمنزل الذى كنت طبيبه قبل ب . وبالموضع الذى ظهر فيه خراجى .

وتمت حلم آخر أفلحت فيه بطريقة مماثلة فى أن أدفع خطراً هدد بأن يقطع نوبى ، أتى هذه المرة من منبه حسى ، إلا أن الصدفة وحدها هى التى مكنتنى فى تلك الحالة من أن اكتشفت الرابطة بين هذا الحلم وبين منبهه الطارئ ومن أن أفهم الحلم تبعاً لذلك . فقد استيقظت ذات صباح – وكان ذلك فى أوج الصيف ، فى مكان جبلى بالتيرول – وأنا أذكر أنى قد حلمت بهذا الحلم : مات البابا . واستعصى على أن أفسر هذا الحلم القصير ، غير البصرى ، ولم أذكر سوى أصل من أصوله ، وهو أنى كنت قد طالعت فى

(١) [أى يفعل الأعاجيب .]

إحدى الصحف أن قداسة البابا كان يشكو توعكا خفيفاً . غير أن امرأتى سألتنى فى خلال الصباح : أسمعت قرع الأجراس المفزع صباح اليوم ؟ ولم أكن أعلم ذلك ، لم أكن أعلم أنى سمعتها ، ولكنى أفهم الآن حلمى : إنه كان استجابة استجابته بها حاجتى إلى النوم تجاه الضوضاء التى أراد أهل التيرول الأتقياء إيقافها ؛ لقد أدركت منهم ثأرى بأن خلصت إلى تلك النتيجة التى تكون منها محتوى الحلم ، ثم مضيت فى نوى دون أدنى مزيد من الاحتفال بالأجراس وقرعها .

وبين الأحلام التى ذكرناها فى الفصول السابقة أحلام كثيرة ، يمكن اتخاذها أمثلة على الصياغة الجديدة التى تلقاها المنبهات المسماة منبهات عصبية . فما حلمت به من شرب الماء على جرعات كبيرة [ص ١٥٠] كان مثالا على ذلك ؛ فقد كان المنبه الجسمى مصدره الوحيد - فيما يبدو - وكانت الرغبة الناشئة عن الإحساس - وأغنى بها العطش - هى الدافع الوحيد إليه . والأمر أشبه بذلك فى أحلام أخرى خالية من التعقيد ، يبدو المنبه الجسمى فيها قادراً بذاته على أن يخلق رغبة . وحلم المريضة التى ألفت فى أثناء الليل بالجهاز المبرد عن خدها [ص ١٥٢] يرينا منهجاً غير مألوف فى الاستجابة إلى المنبه الأليم بتحقيق الرغبة : إن الموقف يبدو فى هذا المثال كما لو كانت الحاملة قد نجحت فى أن تجرد نفسها من حاسة الألم بأن تنسب آلامها إلى شخص عداها .

وحلمى ، حلم آلهات القدر الثلاث [ص ٢٢٤] ، كان صراحة حلم جوع ، إلا أنه عرف كيف ينقل الحاجة إلى الطعام راجعاً بها إلى رغبة الطفل فى صدر أمه ، وكيف يجعل من تلك الرغبة البريئة غطاء يستر به أخرى أشد خطراً ولا يجوز الإعراب عنها بمثل هذه الصراحة . وفى وسعنا أن نرى فى حلم الكونت تون أى طرق تربط بين حاجة جسمية عارضة وبين نوازع هى أشد نوازع الحياة النفسية عنفاً ، وإن تكن أيضاً أشدها حظاً من القمع . وإذا كان القنصل الأول [نابليون] - على ما يرويه جازينييه - قد نسج حلماً بمعركة من دوى قنبلة انفجرت قبل أن يوقظه هذا الدوى ، فإنه قد كشف بذلك فى وضوح فريد فى بابه عن الدافع الأوحى الذى من أجله يشغل النشاط النفسى فى خلال النوم بالإحساسات . وأعرف محامياً شاباً نام فى عصر يوم وهو ممتلىء الرأس بأولى قضاياها الهامة ، سلك مسلكاً لا يفتقر من مسلك نابليون العظيم فى شىء : فقد حلم برجل يدعى

ج . رايخ من [مدينة] هوسياتين ، وكان قد تعرف به في قضية من القضايا ، وظل اسم هوسياتين هذا يلح عليه حتى استيقظ فإذا زوجته - وكانت تشكو رشحاً صدرياً - قد أخذتها نوبة من السعال [بالألمانية husten] .

ولتقارن حلم نابليون الأول الأنف الذكر (ونعلم أن نابليون كان ينام نوماً خارق العمق) بحلم ذلك الطالب التزوم الذى جاءت ربة الدار توقظه ، وكان عليه أن يذهب إلى المستشفى ، فحلم أنه هناك ، راقد على أحد الأسرة ، ثم مضى في نومه بحجة أنه لا يحتاج إلى النهوض من فراشه لكي يذهب إلى المستشفى ما دام موجودا به [ص ١٥١] . إن من الواضح أن هذا الحلم حلم أخذ بالأسهل ، ولقد صرح الحالم نفسه بدافعه إلى الحلم من غير خفاء . ولكنه بهذا عينه يكشف الغطاء عن سر من أسرار الحلم عامة : فكل الأحلام أحلام أخذ بالأسهل ، بمعنى من المعاني : فالهدف الذى تخدمه هو إطالة النوم بدل الاستيقاظ : إن الأحلام حراس النوم لا مزعجاته . وسيتاح لنا في موضع آخر أن نبرر هذه النظرة فيما يتعلق بالعوامل النفسية التى تدفع إلى اليقظة [الفصل السابع ، القسم د] ، ولكننا نستطيع منذ الآن أن نبين صدق انطباقها فيما يتصل بنصيب المنبهات الخارجية . فالنفس إما أن تغفل جملة مناسبات الإحساس في أثناء النوم - إذا وسعها هذا الإغفال على رغم شدة المنبهات ورغم ما تعرف من دلالتها - ، أو هى قد تلجأ إلى الحلم لكي تنكربه وجود هذه المنبهات ، أو هى - ثالثاً - حين لا تجد مفرأ من التسليم بها - تلتمس لها تفسيراً من شأنه أن يحيل الإحساس الحاضر الناشط إلى جزء مقوم من أجزاء موقف مرغوب فيه ، يتفق والنوم . فالإحساس الحاضر الناشط إنما ينسج في حلم لكي يُسَلَّبَ واقعته . ولنابليون أن يمضى في نومه ؛ فما يعمل على إزعاجه سوى حلم يذكر بقصف المدافع في أركول^(١) .

وهكذا فرغبة النوم التى يستغرق فيها الأنا الشعورى التى تُكَوَّنُ بالإضافة إلى الرقابة وإلى المراجعة الثانوية التى يجيء ذكرها فيما بعد نصيب الأنا الشعورى فى الحلم - يجب أن يحسب حسابها فى كل حالة من حيث هى دافع إلى تكوين الحلم ، وكل حلم

(١) إن المرجعين اللذين عرفت منهما هذا الحلم لا يتفقان فى روايته .

ناجح هو تحقيق هذه الرغبة . وسوف نبحث في موضع آخر أمر العلاقة بين هذه الرغبة العامة التي لا تتخلف ولا تختلف - رغبة النوم - وبين سائر الرغبات التي يحقق محتوى الحلم الواحدة منها حيناً ثم الأخرى حيناً آخر . وأما الآن فإننا اكتشفنا في رغبة النوم هذه ذلك العامل الذي يستطيع أن يسد وجه النقص في نظرية شرومبل وفونت وأن يفسر الطريقة الفاسدة التعسفية التي تفسر بها المنبهات الخارجية . فالتفسير الصحيح الذي يستطيع الذهن النائم إتيانه تمام الاستطاعة يتضمن اهتماماً فعالاً ويستلزم إنهاء النوم . ولهذا السبب لم يترك المجال إلا لما كان - بين جميع التفسيرات الممكنة - متفقاً مع الرقابة المطلقة التي تزاوها الرغبة في النوم . وكأني بالحلم يقول : إنه الليل لا القبرة ؛ فلو أنها كانت القبرة ، لكان معنى ذلك أن ليل العاشقين قد حان ختامه . وعلى ذلك لم يكن يُنتخب من بين التفسيرات التي يمكن تفسير المنبه بها إلا هذا التفسير الذي يستطيع أن يوفر أحسن رباط بالاندفاعات الراضية التي تربص في النفس . وهكذا كل شيء محتوم من غير لبس ، ولا شيء متروك للهوى ، وخطأ التفسير ليس وهماً ، بل هو - إن جاز التعبير - مماثلة . ولكن علينا أن نسلم بأننا نجد أنفسنا هنا من جديد - كما في حالة التبديل بالنقل وفقاً لمقاصد الرقابة [أنظر ص ١٩٩] - بإزاء فعل يحيد عن العمليات النفسية السوية .

وحيث تبلغ المنبهات العصبية الخارجية والمنبهات الجسمية الباطنية حداً من الشدة يحمل النفس على الانتباه إليها ، فإنها تصير - هذا إذا أدت إلى الحلم وليس إلى اليقظة - بمثابة النقطة الثابتة في تكوين الحلم ، نواة تجتمع من حولها مادته ، ويدور البحث عن تحقيق رغبة متسق معها ، على نحو ما يدور البحث عن أفكار وسطى تربط ما بين منبهين نفسيين (أنظر ما سبق [في ص ٢٤٦-٢٤٧]) . وإلى هذا المدى يصدق على بعض الأحلام أن العنصر الجسمي يملئ فيها محتوى الحلم . ولقد يذهب الأمر في هذه الحالة المتطرفة إلى حد استدعاء رغبة ليست بالحاضرة الناشطة من أجل تكوين الحلم . بيد أن الحلم لا يملك إلا أن يصور رغبة وقد تحققت في موقف من المواقف ؛ فهو - إن جاز التعبير - يواجه تلك المشكلة : أن يبحث عن الرغبة التي يمكن تصوير تحقيقها بوساطة الإحساس الناشط حاضراً . فإن كانت هذه المادة الحاضرة ذات طابع كرهه أو مؤلم ، لم يعن ذلك بالضرورة أن استخدامها من أجل تكوين الحلم قد صار محالاً ؛ فإن بالنفس رغبات يجلب تحقيقها

الألم، ولقد يبدو ذلك شيئاً متناقضاً ، ولكنه يدنو للفهم إذا لم ننس وجود نظامين نفسيين ووجود رقابة بينهما .

ففي الحياة النفسية - كما رأينا - رغبات مكبوتة تنتمي إلى النظام الأول ، ويناقض النظام الثاني تحقيقها . وأنا إذ أقول : إن تمت رغبات مكبوتة من هذا القبيل ، لا أطلق حكماً تاريخياً قصاراه أن هذه الرغبات قد وجدت حيناً ثم انحوت ، بل إن نظرية الكبت التي لا يستغنى عنها المرء في دراسة الأعصاب تؤكد أن هذه الرغبات المكبوتة لا تزال قائمة وإن قام في الوقت نفسه معها كف يوازنها . ويصيب العرف اللغوي [في الألمانية] كبد الحقيقة حين يتحدث في صدد هذه الاندفاعات عن « Unterdrucken » [أى « دفع إلى أسفل » ومعناه القمع] . والحيل النفسية التي تمكن هذه الرغبات المقموعة من أن تشق طريقها إلى التحقيق لا تنى قائمة ، قابلة للاستخدام . ولكن دع رغبة مقموعة من هذا القبيل توضع موضع التنفيذ : إن كف النظام الثاني ، المغلوب على أمره (وهو النظام القادر على الصبرورة إلى الشعور) يفسح عندئذ عن نفسه في صورة الألم . ولكي نختم هذه المناقشة نقول : إنه إذا نشأت في أثناء النوم إحساسات ذات طابع أليم صادرة عن مصادر جسمية ، استغل عمل الحلم هذا الوضع في تصوير تحقيق رغبة تُلَاقى عادة بالكف - هذا مع بقاء الرقابة إلى درجة تنقص أو تزيد ^(١) .

وهذا الوضع هو الذي يتيح وقوع طائفة من أحلام الهيلة ، في حين تم عن ميكانيكية مختلفة طائفة ثانية من تلك التراكيب الحلمية التي لا تحمل على تأييد نظرية الرغبة : ذلك أن الهيلة في الأحلام قد تكون هيلة عصابية ، ناشئة عن تهيج نفسى جنسى ، وهى في هذه الحالة تعدل ليبدو مكبوتة . وعندئذ تكون للهيلة ، كما للحلم الهيلة جميعه ، قيمة العرض النفسى ، ونكون اقربنا من الحد الذى يتحطم عنده ميل الحلم إلى تحقيق الرغبة . وأما أحلام الهيلة الأخرى فالهيلة فيها تنجم عن الجسم (مثلما يقع حين تعثرى مرضى الرثتين أو القلب صعوبة في التنفس) . وفي هذه الحالة تُستغل الهيلة في المعاونة على أن تتحقق في صورة الحلم رغبات مكبوتة كبتاً عنيفاً ، لو أن الدوافع إلى الحلم بها كانت دوافع نفسية لكانت النتيجة انطلاق الهيلة كذلك . وليس من الصعب

(١) [يعود فرويد إلى معالجة هذا الموضوع في القسم ج من الفصل السابع ، ص ٥٤٧ وما بعدها .]

أن نجمع بين هاتين الحالتين على ما يبدو من انفصالهما ؛ ففي كلاهما نجد عنصرين نفسيين مرتبطين كلا بالآخر أوثق الارتباط ، هما نزوع وجداني ومحتوى فكري ، يستدعى أحدهما - وهو الحاضر الناشط - العنصر الآخر حتى في الحلم : فطوراً تستدعى الهيلة المحتمة بعقل جسمية المحتوى الفكري للحلم ، وطوراً آخر يستتبع المحتوى الفكري - بعد أن تحرر من عقال الكبت بما يصحبه من تهييج جنسى - يستتبع انطلاق الهيلة . ونستطيع أن نقول عن الحالة الأولى : إن حالة وجدانية محتمة بعقل جسمية قد لقيت فيها تفسيراً نفسياً ، وأما الحالة الثانية فالكل فيها ذو أصل نفسى إلا أن تفسيراً جسمياً يتلائم والهيلة قد حل فيها من غير عناء محل المحتوى الذى كان مكبوتاً . وعلى أية حال ، فإن الصعوبات التى نلقاها فى فهم هذا كله لا تحمل كبير صلة بمسألة الأحلام : إنها ترجع إلى كوننا نقرب ههنا من مشكلة نشوء الهيلة ومشكلة الكبت .

وما من شك فى أن الحالة المزاجية العامة [أنظر ص ٧٢] للجسم تدخل فى عداد المنبهات الجسدية الباطنة التى تتحكم فى محتوى الحلم ؛ لا لكونها تستطيع أن تمد الحلم بمحتواه ، ولكنها تملئ على أفكار الحلم أن تختار ما تختاره من المادة المعدة لأن تصور فى محتوى الحلم ، وذلك من حيث أنها تقرب ما كان من أجزاء تلك المادة متلائماً وطبيعتها بينا تبعد الأجزاء الأخرى . أضف إلى ذلك أن تلك الحالة المزاجية العامة المتخلفة من النهار ترتبط يقيناً ببقايا النهار النفسية - مع ما لهذه من أهمية بالنسبة إلى الحلم . ولقد يبقى هذا المزاج هو هو فى خلال النوم ، وقد تم الغلبة عليه فإن كان أليماً انقلب إلى الضد .

وهكذا أقدر أن مصادر التنبيه الجسمية (أى إحساسات النوم) إنما تأخذ من تكوين الحلم بنصيب يماثل نصيب ما يتخلف عن النهار من انطباعات حديثة العهد لكنها خالية من الشأن - هذا إلا إذا كانت تلك المصادر ذات شدة غير مألوفة . أى أننى أعتقد أن الأحاسيس الجسمية إنما يستعان بها فى تكوين محتوى الحلم إذا كانت تتلائم والمحتوى الفكري المستمد من مصادر الحلم النفسية بحيث يمكن التوحيد بينها وبين هذا المحتوى الفكري ، وإلا لم يستعان بها . فهى تعامل بمثل ما تعامل به مادة رخيصة سهلة

المنال في كل وقت ، تنطاع للمرء كلما احتاج إليها ، وليس كمادة ثمينة ، تفرض بذاتها وجه استخدامها . فمثل الحال هنا كمثل أحد الحاديين على الفنون الجميلة أتى فناً بحجر كريم - كقطعة من العقيق - لكي يصوغ منه أثراً فنياً ؛ إن حجم القطعة ولونها وتشييحها سوف تعين الفنان على أن يقرر أى رأس أو أى منظر يصلح لأن يصور فيها ، على حين أن الفنان لا يحتاج في مادة متساوية موفورة - كالمرمر أو الحجر - إلى غير متابعة الفكرة التي تهبأت في ذهنه . وعلى هذا النحو وحده نفهم - فيما يهيا إلى - تلك الحقيقة : أن المنبهات العضوية ذات الشدة المألوفة لا تظهر آثارها في محتوى الحلم في كل حلم وفي كل ليلة ، وإن زودت الحلم ببعض محتواه أحياناً^(١) [أنظر ص ٢٤٥] .

وربما كان أحسن ما يوضح معنای مثال يعود بنا ممن جديد إلى تفسير الأحلام . فقد كنت أجهد ذات يوم في فهم المعنى الذي تراه يكون لهذا الإحساس الذي يكثر في الأحلام أياً كثرة ويقرب من الهيلة أياً قرب : حين يشعر المرء بأنه قد كف ، أو سمر في موضعه ، أو فقد القدرة على إتيان عمل من الأعمال ، الخ . فلما كان الليل جاعني هذا الحلم

أصعد السلم وأنا مرتد ثيابي منقوصة إلى حد كبير ، من شقة في الطابق الأرضي إلى طابق أعلى . كنت أنهب السلم ثلاث درجات في كل خطوة وأنا سعيد بهذه الخفة . أرى فجأة خادماً تنزل السلم ، أي مقبلة نحوي . يتولاني الخجل وأريد أن أمضي مسرعاً ، وفي هذه اللحظة يحل بي هذا الشعور بالكف : لقد سمرت على الدرج ولم أعد أستطيع حراكاً من موضعي .

التحليل : إن الموقف الذي يظهر في الحلم مأخوذ من واقع كل يوم ؛ فأنا أشغل في منزل بشيئا شقتين لا يصل بينهما سوى السلم المشترك . وتقع غرفة الاستشارة مع مكتبي في الطابق الأول ، بينما تقع غرف السكن في الطابق الأعلى . فإذا فرغت من عملي في ساعة متأخرة من الليل صعدت السلم إلى حجرة النوم . وكنت في الأمسية التي سبقت الحلم قد قطعت هذه المسافة القصيرة وأنا حقيقة مبعر الثياب بعض الشيء ، وأعني أنني نزعيت البنيقة وربطة العنق والأكام . وتزيد في الحلم درجة التجرد من الثياب - وإن

(١) لقد بين رانك في مقالات متعددة أن الأحلام الحالبة لليقظة والتي تحدث عن منبهات عضوية (مثل الأحلام ذات المنبه البولي وأحلام الإنزال) تصلح صلاحية خاصة للبرهنة على الصراع بين الحاجة إلى النوم ومطالب الحاجات العضوية ، وكذلك على تأثير تلك الحاجات في محتوى الحلم .

بقيت غير محددة، كما هو الشأن عادة [أنظر ٢٦٠ وص ٢٦٢]. ومن عادتي أن أنهب السلم على هذا النحو ، وهي عادة كان جلياً في الحلم أيضاً أنها تحقق رغبة ؛ فالسهولة التي أصعد السلم بها كانت تطمئنني إلى حالة القلب عندي . وعدا ذلك ، كانت هذه الطريقة في الصعود تناقض الكف الذي أعقب في النصف الثاني من الحلم مناقضة فعالة ، إنها كانت ترينى - وهو ما لم يكن محتاجاً إلى برهان - أن الأحلام لا تجد أقل صعوبة في تصوير الأفعال الحركية وهي تؤدي أداء يبلغ حد الكمال . ويكفي أن يفكر المرء في أحلام الطيران !

غير أن الدرج الذي أصعده لم يكن درج منزلي . وقد عجزت للوهلة الأولى عن معرفته ، ولم أتبين أى مكان هو المعنى إلا حين عرفت من هو الشخص الذي أقبل نحوي : إن هذا الشخص خادم تعمل لدى سيدة متقدمة في السن أزورها في كل يوم مرتين لكى أحقنها . والسلم أيضاً كان يشبه كل الشبه سلم منزلها ، هذا السلم الذي كنت أصعده في النهار مرتين .

ولكن كيف كان لهذا السلم ولهذا الشخص الأثوى أن يدخل حلمي ؟ إن الخجل لتجردي من الثياب بعض التجرد خجل ذو طابع جنسى من غير شك . ولكن الخادم التي أحلم بها تكبرنى منا ، عبوس ، عاطل ولا شك من الجاذبية . الجواب الوحيد الذى يخطر لى هنا هو هذا : كنت عندما أزور هذا المنزل زيارة الصباح يتتابى السعال عادة وأنا أصعد السلم . ولم يكن بد من أن يقع البصاق على الدرج ؛ فلم تكن هناك مبصقة فى أى من هذين الطابقين ، وكانت وجهة نظرى هي أن نظافة السلم لا ينبغي صونها على حسابى ، بل يجب تسييرها بوضع المبصقات . ولكن بوابة المنزل - وهي أيضاً عجوز عبوس - وإن تكن فطرت على النظافة ، كما أسلم به طائماً - كانت ترى رأياً مختلفاً : فهي ترينى لترى هل أبيع لنفسى الفعل الذى ذكرته ، فإن رأيتى أفعله سمعت لها مهمة لا تُخطأ ، وظلت بعد ذلك أياماً لا تجيب التحية بمثلها . واتفق في يوم الحلم أن انتصرت الخادم لحزب البوابة : فقد كنت فرغت على عجل - شأني دائماً - من زيارة المريضة ، حين استوقفتنى الخادم لتدلل بهذه الملاحظة : « يا سيدى الطيب أما كان يسعك أن تمسح نعليك اليوم قبل أن تدخل الحجرة ، لقد اتسخت السجادة الحمراء

كلها من قدميك مرة أخرى . « وهذا هو كل ما يخول للسلم والخدام أن يظهرها في حلمي .

وهناك رباط باطن يربط ما بين انتهاب السلم والبصق عليه . فالسعال - كمرض القلب - يعد لوناً من العقاب على رذيلة التدخين ، وهي رذيلة كان من جرائها أن سمعتي من ناحية النظافة لم تكن على أحسن ما يرام قبل السلطات المعنية في منزلي نفسي ؛ إنها ضعيفة في كلا المنزليين على السواء حتى أن الحلم قد مزجهما في صورة واحدة .

ولست أجد بدا من أن أرجئ المضي في تفسير الحلم حتى أبين منشأ هذه الأحلام المنطقية التي نرى فيها أنفسنا متجردين بعض التجرد من الثياب . وإنما أكتفي هنا بالإشارة إلى نتيجة موقوتة تخلص من الحلم الذي رويته ، وهي : أن الشعور بكف الحركة إنما ينشأ في الحلم كلما اقتضت ذلك ملابس خاصة . فمن المحال أن تكون علة هذا المحتوى الحلمى تغييراً خاصاً طراً على قدرتي الحركية في أثناء النوم ؛ فقد رأيتني منذ لحظة سبقت (كأنما كان المراد دعم ما أقول) وأنا أهول على الدرج دون ما عناء .

د

الأحلام المنطقية

إننا لا نجد نفسنا - بوجه عام - في موقف يسمح لنا بأن نفسر أحلام شخص سوانا ، إلا إذا قبل الحالم أن ينقل إلينا أفكاره اللاشعورية الكامنة وراء محتوى الحلم ؛ ولهذا حُدّ إلى مدى كبير إمكان التطبيق العملي لمنهجنا في تفسير الأحلام^(١) . غير أن هناك أحلاماً تخالف كل المخالفة هذه الحرية التي يملكها كل فرد في أن يشكل دنيا

(١) إن القول بأن منهجنا في تفسير الأحلام لا يمكن تطبيقه إلا إذا وقفنا على المادة الاستدعائية عند الحالم يقتضى تكمته بالنص على أن نشاطنا التفسيري يصبح مستقلاً عند هذه المستدعيات في حالة واحدة : إذا

الحلم عنده على حسب خصوصيته ، جاعلا فهمها أمراً ممتنعاً على الآخرين : لأنها أحلام لا يكاد يكون بيننا امرؤ لم يحلم بها على نحو لا يختلف عنده منه عند الآخرين وألفنا أن نفترض لها معنى واحداً عند الجميع . هذه الأحلام النمطية هي أيضاً أحلام ذات أهمية خاصة ؛ لأنها تنشأ في الراجع من مصادر واحدة عند جميع الناس ، وهي لذلك تبدو ذات صلاحية خاصة لأن تلتقى بعض الضوء على مصادر الحلم .

ومن ثمت كنا نأخذ في تطبيق منهجنا التفسيري على هذه الأحلام النمطية ونحن نعقد عليه آمالاً كباراً ، لكي نتبين بعد ذلك على مضمض أن منهجنا هذا لا يجب تلك الآمال الكبار فيما يتصل بهذه المادة بالذات . ذلك أن الذي يقع عادة حين نتعرض لتفسير الأحلام النمطية هو أن تغيض خواطر الحالم - تلك الخواطر التي كانت تتيح لنا فهم الحلم في غير ذلك من الحالات - أو هي تغمض وتندر ، بحيث نعجز عن أن نحل مشكلتنا بمعاونتها .

فما منشأ ذلك ؟ وكيف نسد هذا النقص في طريقتنا ؟ ذلك ما سوف يتضح في موضع آت من هذا الكتاب [القسم هـ من الفصل السابع] ، وعندئذ سوف يتبين أيضاً للقارئ لم كنت لا أستطيع أن أتناول هنا سوى أنماط قليلة من مجموعة الأحلام النمطية ، مرجحاً مناقشة ما عداها إلى ذلك الحين .

(أ) أحلام الارتباك من جراء العرى

إن الأحلام التي يرى فيها المرء نفسه عارياً من الثياب أو متجرداً بعض التجرد منها قد تتسم أيضاً بتلك السمة : وهي أن يغيب عند الحالم كل شعور بالحجل أو بما شاكله . ولكننا لن نشغل بأحلام العرى إلا حين يستشعر فيها المرء الحجل والارتباك ، ويريد الفرار أو الاختباء ، وعندئذ يتولاه كف غريب ، فلا يستطيع من موضعه حراكاً ،

استخدم الحالم عناصر رمزية في محتوى الحلم . فمما نلتجئ إلى منهج في تفسير الحلم يمكن وصفه وصفاً دقيقاً بأنه منهج ثانوي مساعد . (أنظر ما يلي [القسم هـ من الفصل السابع] .)

ويحس العجز عن أن يغير من موقفه الأليم . وبغير هذه المصاحبة لا يكون الحلم حلماً نمطياً ؛ فلا شيء يمنع إذا هي ارتفعت من أن تدرج النواة التي يدور من حولها محتوى الحلم وسط ملابسات من كل نوع ، أو من أن تزان بتطاريز تختلف باختلاف الأفراد . فالحلم يقوم في جوهره [من حيث هو حلم نمطي] في هذا الشعور الأليم الذي هو خجل ، وفي كون المرء يود لو أخفى عريه - بالحركة في أغلب الأحيان - ولكنه يجد نفسه عاجزاً دون ذلك . وأعتقد أن الغالبية العظمى من القراء قد عرفوا هذا الموقف في الحلم .

والمألوف هو أن يكون نوع العرى ومداه بعيدين عن الوضوح . فقد نسمع الحلم يقول : « كنت أرتدى قميصاً » ، ولكن قل أن تكون هذه صورة متميزة . فالعري في الأغلب غير محدد ، حتى أن الراوي يعدد في وصفه الاحتمالات : « كنت ألبس قميصاً أو معطفاً » . والنقص في الثياب لا يكون في العادة خطيراً إلى المدى الذي يبدو معه مبرراً لما يصحبه من الخجل ، بل إن العري كثيراً ما تستبدل به عند من ألف الملابس العسكرية طريقة في الارتداء تخرج بعض الشيء على التعليمات : « كنت أسير في الطريق بغير سيف ورأيت بعض الضباط يقبلون » ، أو « كنت بغير ربطة عتي » ، أو « كنت أرتدى سراويل مدنية » ، الخ .

وأما الناس الذين يستشعر المرء قبالتهم هذا الخجل فيكادون أن يكونوا دائماً غرباء تركت سيماهم من غير تحديد . ولا يحدث أبداً في الحلم النمطي أن تلتق طريقة الارتداء التي توقع صاحبها في كل هذا الارتباك اعتراضاً ، ولا هي تُعار التفاتا ، بل تحمل الناس على العكس وجوهاً لا تبالى أو - كما لحظته في حلم فريد في دلالة - وقورة ، جامدة . لني ذلك مدعاة إلى التفكير !

نعم ، إن ارتباك الحلم وقلة احتفال الناس يطالعانا - مجتمعين - بتناقض من قبيل ما يكثر وقوعه في الأحلام : فإنما كان يماشى مشاعر الحلم أن ينظر إليه الغرباء في دهش واستهزاء أو مستنكرين . بيد أني أظن أن هذا الوجه الفاضح من الموقف قد أزيل بفعل تحقيق الرغبة في حين أبقت على الوجه الآخر [الارتباك] قوة من القوى ؛ وهكذا لا يتوأم الشطران كلاه والآخر . ولدينا شاهد ممتع على أن الحلم في صورته التي شوهتها الرقابة تشويهاً جزئياً لم يلق فهمه الصحيح . ذلك أن هذا الحلم قد كان الأساس الذي بنيت عليه قصة صرنا جميعاً نعرفها في رواية هانس أندرسن (« حلة الإمبراطور الحديدية ») ،

ونظمها حديثاً لودفيج فولدا في «الطلسمان» : تحدثنا قصة أندرسن عن محتالين نسجا للأمبراطور رداء غالى الثمن لا يراه إلا الأخيار المخلصون ويخرج الأمبراطور مرتديا هذا الرداء الخفى ، ويخاف الناس مما يزعم للنسيج من القدرة على امتحانهم ، فيسلكون كما لو كانوا لا يرون عرى الأمبراطور .

ولكن هذا عينه هو الموقف الذى نجده فى حلمنا . ولسنا نجازف كثيراً حين نقدر أن لا معقولية الحلم هى التى كانت الحافز إلى اختراع رداء يجعل لهذا الموقف - كما يمثل فى ذاكرتنا بعد الحلم - معنى ما . صحيح أن الموقف يُسلب فى أثناء ذلك معناه الأصيل ويسخر فى خدمة أغراض مغايرة . ولكن مثل هذا الفهم الخاطئ الذى يلقاه محتوى الحلم من جانب النشاط الفكرى الشعورى الصادر عن نظام نفسى ثان - سوف نعلم أنه أمر كثير الوقوع وأنه يجب أن يعد بين العوامل التى تخلع على صورة الحلم شكلها الأخير^(١) ، وسوف نعلم فوق ذلك أن أخطاء مماثلة فى الفهم - تقع أيضاً فى نطاق الشخصية النفسية الواحدة - تشارك بنصيب رئيس فى تكوين الأفكار القهرية والخاوف الشاذة . ثم إن من السهل فيما يتصل بحلمنا أن نبين من أين استقيت المادة التى أقيم عليها التفسير الخاطئ : فالمحتمل هو الحلم ، والأمبراطور هو الحلم نفسه ، والميل إلى الموعظة الخلقية ينم عن معرفة مبهمة بأن الأمر يدور فى محتوى الحلم الكامن حول رغبات محرمة ، ذهبت ضحية الكبت . والحق أن السياق الذى تظهر فيه أمثال هذه الأحلام فى أثناء قيامى بتحليل العصائين لا يترك أقل مجال للشك فى أن الحلم قائم على ذكريات ترجع إلى الطفولة المبكرة . فطفولتنا هى الزمن الوحيد الذى كنا نرى فيه غير مكتملى الثياب سواء أمن الأقربين أم من الغرباء ، كالمربيات والخدم والزوار ، ولم تكن إذ ذاك نشعر بالجل لعرينا^(٢) . ونستطيع أن نلاحظ كيف يطرب الكثير من الأطفال ، ممن تقدموا مع ذلك بعض التقدم فى السن ، حين ينزعون ملابسهم ، يطربون إلى ما يقارب التمل بدل أن ينجلوا ، فهم يتضحكون ويتواثبون ويتبادلون الضربات على صفحات أجسامهم ، بينما تفرعهم أمهم أو من اتفق حضورها قائلة : آه ، إن هذا عار لا يجوز . والأطفال كثيراً ما يظهرون التنازح بأن يعرضوا أنفسهم ؛ فلا يكاد المرء يمر بقرية فى ريفنا دون أن

(١) [يشير فرويد هنا إلى عملية " المراجعة الثانوية " التى يشرحها فى القسم ط من الفصل السادس .]

(٢) وقصة أندرسون يظهر فيها طفل كذلك ؛ فطفل هو الذى يصيح : ولكنه عار !

يصادف طفلاً في الثانية أو الثالثة يرفع أمامه جلبابه الصغير - ربما على سبيل التكريم . وبين مرضاه مريض حفظت ذاكرته الشعورية مشهداً وقع له وهو في الثامنة من عمره ، حين أراد وقد نزع ثيابه متأهباً للنوم أن يرقص وليس عليه سوى القميص في الحجرة المحاورة حيث أخته الصغيرة ، فصدته المريية عن مراده . والتعري أمام أطفال الجنس الآخر ظاهرة لها نصيب ضخم في تاريخ الطفولة عند العصائين ، كما أن ما يهياً في البارانونيا للمريض من أنه ملحوظ حين يرتدى ثيابه وحين ينزعها يجب إرجاعه إلى خبرات من هذا القبيل . هذا بينما نجد بين من بقوا على انحرافهم طبقة اشتد عندها هذا الاندفاع الطفلي حتى بلغ مبلغ العرض المرضى : تلك هي طبقة المستعرضين .

هذه الفترة من الطفولة التي لا تعرف الحجل تبدو للنظر حين نرده إليها ضرباً من الفردوس . والفردوس نفسه إن هو إلا تخيل جماعي عن طفولة الفرد ؛ لهذا كان الناس في الفردوس كذلك عراة لا ينجلون حين يتواجهون ، إلى أن جاء أوان فاستيقظ الحجل ودب الهول وتبع الطرد^(١) وأخذت الحياة الجنسية ومشاكل العمران في المسير . ولكن الحلم مستطع أن يسرى بنا فيعيدنا إلى هذا الفردوس من جديد ، ولقد أعربت من قبل [ص ٢٤١] عن ظن مؤداه أن انطباعات الطفولة (أعنى من فترة ما قبل التاريخ إلى أن تقارب السنة الثالثة ختامها) تسعى إلى التكرار من تلقاء ذاتها ولذاتها ، وربما سعت إليه بغض النظر عن محتواها ، وأن تكرارها هذا يحقق رغبة . وهكذا تكون أحلام العرى أحلام استعراض^(٢) .

والحلم الاستعراضى تتكون نواته من الحلم الذى لا يترأى على ما كان عليه في طفولته بل كما هو في حاضره ، ومن ردائه المنقوص الذى يبدو غير متميز ، سواء أرجع ذلك إلى تراكم ما أعقب من ذكريات لا حصر لها عن نزع ملبسه أم رجع إلى الرقابة ، ثم يأتي بعد ذلك الأشخاص الذين ينجل في محضهم . ولست أعرف مثالا واحداً عاود فيه الظهور في الحلم أولئك الذين قد شهدوا حقيقة ذاك الاستعراض الطفلي ؛ فالحلم لا يكون

(١) [الطرد ، هو طرد آدم وحواء من الجنة على حسب قصة التوراة المعروفة في سفر التكوين ، وقد رواها

القرآن رواية مقتضبة أطولها ما جاء منها في سورة البقرة . والهول بمعنى الهيلة .]

(٢) لقد سجل فرنتسى طائفة جديرة بالاهتمام من أحلام العرى حملت بها نساء . ولم تكن هناك صعوبة في تأثر هذه الأحلام إلى الرغبة الطفلية في الاستعراض ، إلا أنها كانت تختلف في بعض نواحيها من الأحلام " المنطية " التي أعالجها في النص .

أبدا ذكرى وحسب ، ومن العجيب أن أولئك الأشخاص الذين يتجه إليهم اهتمامنا الجنسي في طفولتنا يتركون جانباً في كل استحضار يقع في الحلم أو في الهستيريا أو في العصاب القهري . البارانونيا وحدها هي التي تعود إلى هؤلاء المشاهدين فتنصبهم من جديد وتستدل على وجودهم في يقين ملؤه التعصب ، وإن ظلوا غير منظورين . وأما ما يحل محلهم في الحلم - « كثرة من الغرباء » لا تلقى بيالا إلى المشهد المعروض عليها - فإن هو على التحقيق إلا الضد المرغوب لذلك الشخص المفرد عينه الذي قد ألقه الحلم يوماً والذي من أجله كان التعرى . وهذه الـ « كثرة من الغرباء » تظهر بعد في الأحلام كثيراً ، في سياق يتنوع بتنوع المقاصد ، وهي عندئذ تعنى دائماً - باعتبارها رغبة مضادة - « في الخفاء »^(١) . وإنا لنلاحظ كيف لا تخلو البارانونيا ذاتها - حيث يتحقق استرجاع الوضع القديم - من أثر هذا الاتجاه المضاد ؛ ففيها يحس المريض أنه لم يعد وحده : إنه موقن من أن ثمت آخرين يرقبونه ، ولكن مراقبيه « كثرة من الغرباء متروكين من غير تحديد على نحو عجيب » .

والكبت أيضاً له كلمته في أحلام الاستعراض ؛ فالشعور الأليم الذي يرد في الحلم إنما هو رد النظام النفسي الثاني على نجاح المشهد الطفلي في أن يعرب عن محتواه على الرغم من تحريمه . والسبيل الوحيد إلى تجنب هذا الألم هو ألا يبعث ذلك المشهد أبدا . ونعود فيما بعد إلى الشعور بالكف [ص ٣٤٤] . وإنما نقول الآن : إنه يصور في الحلم - تصويراً ما أوفقه ! - صراع الإرادة ، يصور « كلا » ؛ فالغاية اللاشعورية تأتي إلا متابعة الاستعراض والرقابة تأتي إلا إيقافه .

وما من شك في أن الروابط بين أحلامنا النمطية وبين قصص الأطفال وغيره من مؤلفات الخيال ليست بالقليلة ولا بالعارضة . ويتفق أحياناً أن تتسنى لفنان خالق نافذ البصر معرفة تحليلية بعملية التحول التي لا يكون الفنان عادة سوى مطيهاً ، فإذا هو - وقد تتبع تلك العملية في اتجاه عكسي - يرد الأثر الفني إلى الحلم . ولقد نبهني صديق إلى فقرة خطها جوتفريد كيلر في « هاينريخ اليانغ » جاء فيها : « ولست أود لك يا عزيزي لي أن تعلم أبدا علم المتعظ بنفسه ما حواه من صدق لاذع فريد ذلك الموقف من الأوديسا ، حيث يظهر أوليس عارياً ، مغطى بالوحل أمام أعين نوسيك وقريناتها .

(١) وما له هذا المعنى أيضاً حضور « العائلة مجتمعة » وذلك لأسباب لا تخفى على الفهم .

أتريد أن تعلم كيف يقع ذلك ؟ انكسب النظر إذن إلى مثالنا : لو أنك جولت في الغربية بعيداً عن وطنك وعن كل عزيز عليك ، ورأيت كثيراً وخبرت كثيراً ، وعرفت الأسمى والهم ، وصرت إلى تعس وضياح بلغا منك النهاية ، إذن لحملت لا محالة في ليلة أنك تدنومن وطنك . لسوف تراه مشرقاً زاهياً في أبهى الألوان، وهامى ذى أطيايف رحيمة ، رقيقة ، حبيبة تقرب منك ، وهنا ينكشف لك فجأة أنك في شمال ، عار ، عليك غبار . وعندئذ يتولاك خجل لا وصف له ، وسوف تبحث عما يسترك أو يخفيك ، ثم تصحو في عرق مصبوب . ذلك ، ما بقى على الأرض الإنسان ، حلم الرجل أثقلته الأحزان وتطارحته الرياح ؛ فما استمد هومير صفحاته هاته إلا من أعماق الوجود الإنساني وخالده . ١

وأعنى ما فى الوجود الإنساني وخالده ، هذا الذى يعتمد الشاعر عادة على استنارته ، يقوم فى هذه الاندفاعات النفسية التى تضرب جنورها فى طفولة آلت من بعد إلى ما قبل التاريخ . فهناك رغبات من رغبات الطفولة مكبوتة ، ممنوعة ، تنفذ إلى الحلم مستترة وراء رغبات الشريد التى لا اعتراض عليها والتى يمكن قبولها فى الشعور . ولهذا كان الحلم الذى يتجسم فى أسطورة نوسيكاً ينقلب دائماً إلى حلم هيلة .

وحلمى المروى فى ص ٢٥٦ ، الذى رأيتنى فيه أنهب السلم نهياً ثم لا أثبت أن أتسمر على درجاته كان أيضاً حلماً استعراضياً لأنه يحمل الأمارات الجوهرية على ذلك . ولا بد إذن من أن يكون فى الوسع تأثيره إلى ذكريات وقعت فى الطفولة ، ومعرفة هذه الذكريات بلورها لا بد أن تعيننا على أن نقدر إلى أى مدى أعان مسلك الخادم لزانى - وأعنى تقريرها لباى على توسيخ السجادة - على أن تجدها محلا فى الحلم . والواقع أننى أستطيع أن آتى بالإيضاح المطلوب : إن التحليل النفسى يعلم المرء أن يفسر التقارب فى الزمن بالترابط فى المضمون [أنظر القسم ج من الفصل السادس ، ص ٣٢٤] . فإذا تعاقبت فكرتان على غير رباط ظاهر كان ذلك دليلاً على أنهما تنتميان إلى كل واحد ينبغى الكشف عنه ، كما أنك إذا كتبت أ ثم أردفت بها ب وجب النطق بهما مقطعاً واحداً : أب ، والأمر كذلك إذا وقع الترادف فى الحلم . وحلم السلم هذا قد اخترته من بين سلسلة من الأحلام ألمت بمعناها بعد تفسيرها . وهو إذن يعالج ذات الموضوع من غير شك . وأقول الآن : إن هذه الأحلام كانت تقوم على ذكرى مربية عهد بى إليها فى فتره ما ، امتدت من

زمن الرضاغة إلى أن بلغت الستين والنصف ، ولا زالت أحفظ في الشعور ذكري غامضة عنها . وقد كانت هذه المرأة — على حسب ما علمته أخيراً من أمي — عجوز ، قبيحة ، لكنها كانت ماهرة ، قديرة . ثم هي لم تكن — بحسب النتائج الذي يجوز لي استخلاصها من أحلامي — تعاملني دائماً ألطف المعاملة ، وأظنها كانت تسمعي خشنا إذا قصرت في بلوغ المستوى المطلوب من النظافة . وهكذا حق للخادم — وقد أخذت على عاتقها من جديد متابعة تلك المهمة التربوية — أن تعامل في الحلم كما لو كانت نسخة جديدة من عجوز ما قبل التاريخ . ونستطيع أن نفترض بالطبع أن الطفل كان يهدى حبه إلى من لفتته هاته الدروس على الرغم من سوء معاملتها^(١) .

(ب) أحلام موت الأحياء

وهناك طائفة أخرى من الأحلام تصح تسميتها أحلاماً نمطية ، هي تلك التي يرد في محتواها أن حبيباً قد مات ، كأحد الوالدين أو الإخوة أو الأبناء . وعلينا أن نبادر بالفرقة بين طبقتين من هذه الأحلام : الواحدة هي التي يظل الحلم فيها دون أن يحرك الموت في نفسه شيئاً ، حتى ليدهش — إذا استيقظ — لجمود حسه ، وأما الأخرى فيحزن فيها الحلم للموت حزناً عميقاً ، حتى ليدفق دمه غزيراً وهو نائم .

ولنا أن نترك الطائفة الأولى من هذه الأحلام ، إذ ليس هناك ما يخول لها أن تعد أحلاماً نمطية ، لأننا نجد إذا حللناها أنها تعني شيئاً آخر غير ما تحويه ، وأنها قد جاءت لكي تستر رغبة أخرى من الرغبات . ومثال ذلك حلم الحالة التي رأت ابن أختها الوحيد مسجى أمامها (ص ١٧٨) : فهذا الحلم لم يكن يعني أنها كانت تريد الموت لابن أختها

(١) وما هو ذا تفسير آخر : لما كان "Spucken" [: البصق ويعني أيضاً الولاية أو التسلط حين يقالان للأرواح] من مهام الأرواح ، فإن "Spucken" [بمعنى البصق] على السلم ، يذهب بالذهن — من طريق ترجمة واهية — إلى : "Esprit d'escalier" [تعبير فرنسي ترجمته الحرفية : "روح السلم" ، ويعني بظه البديهة عند الرد ، من كونك لا يسمفك الجواب ثم تجده "وأنت نازل على السلم"] . وهذا التعبير يعدل ضدّه في الألمانية قولنا : "Schlalgfertigkeit" [ومعناه الحرقى : التأهب للضرب] وهو اعتماد لا أرى إلا أنه ينقصني . ولكن أنتره كان ينقص مربيتي ؟ [يشير فرويد إلى هذه المربية في نهاية الفصل السابع من كتاب "سيكوباتولوجية الحياة اليومية" ويتحدث عنها بمزيد من التفصيل في خطابين إلى فليس : ٧٠ ، ٧١ (فرويد ١٩٥٠ أ) .]

الصغير ، كل ما هناك — كما رأينا — هو أن الحلم كان يخفى رغبة في أن ترى بعد طول قطعة شخصاً حبيباً إليها ، هذا الشخص عينه الذى سبق لها لقاءه مرة — بعد انقطاع دام كذلك طويلاً — بجوار ابن أختها الآخر وهو راقد فى نعشه . ولم يكن من شأن هذه الرغبة التى كانت تكون محتوى الحلم الحقيقى أن تثير حزناً ، وعلى ذلك لم يكن فى الحلم حزن . فنحن نلاحظ هنا أن الشعور الذى أحست به الحاملة لم يكن يتعلق بمحتوى الحلم الظاهر بل بالباطن ، وأن محتوى الحلم الوجدانى قد سلم من التشويه الذى أصاب محتواه الفكرى .

ولكن الأمر يختلف فى تلك الأحلام التى يتخيل فيها الحالم موت قريب حبيب ، ويألم لذلك وجدانه : هذه الأحلام — كما يتحدث به محتواها — تعنى الرغبة فى موت الشخص المقصود . ولما كنت أتوقع هنا أن تثور مشاعر قرأتى كافة ، هم وكل من وقع له مثل هذا الحلم ، لم يكن بد من أن أحاول إقامة دليل على أوسع أساس ممكن .

لقد ناقشنا من قبل حلماً علمنا منه أن الرغبات التى يصور الحلم تحققها لا تكون دائماً بنت يومها ، بل هى قد تكون أيضاً رغبات ماضية ، مهجورة ، مدفونة ، مكبوتة ، لا يحلمنا على أن ننسب إليها نوعاً من الوجود المستمر سوى رجوعها إلى الانبعاث فى الحلم . فهى — تلك الرغبات — ميتة ، لا كالموتى فى تصورنا ، بل كأشباح الأوديسا التى لا تلبث أن تبعث إلى الحياة حين تلغ الدم . فحلم الطفلة الميتة فى صندوقها (ص ١٨٠) كان يتصل برغبة كانت منذ خمسة عشر عاماً رغبة حاضرة وكانت الحاملة إذ ذاك تعلمها سافرة . ولا أظنه أمراً يخلو من القيمة بالنسبة إلى نظرية الأحلام أن أضيف أن هذه الرغبة كانت تقوم هى أيضاً على ذكريات من ذكريات الطفولة : ذلك أن الحاملة قد سمعت فى طفولتها — دون أن تدري متى تحديداً — أن أمها قد اقرسها فى أثناء الحمل الذى كانت هى ثمرته انقباض شديد ، وأنها ودت ودا حازا لو أن الطفل قد مات وهو جنين . فلما كبرت الحاملة وصارت حاملاً ، لم تفعل إلا أن حذت حذو أمها .

فإذا حلم البعض وهو يفصح عن كل علائم الألم أن أباه أو أمه أو أخاه أو أخته قد مات ، لم أفكر على الإطلاق فى أن أقيم من هذا الحلم دليلاً على أن الحالم يريد اليوم موت هذا القريب . فنظرية الحلم لاتقتضى كل هذا ، بل تقنع بالانتهاء إلى أنه — أعنى الحالم — قد اشتبهى هذا الموت فى فترة أو أخرى من فترات الطفولة . غير أننى أخشى ألا

يفلح هذا التحفظ في تسكين المعترضين ؛ فهؤلاء سوف ينكرون احتمال أن تكون مثل هذه الفكرة قد طرأت لهم يوماً بمثل القوة التي ينكرون بها أن تكون تلك رغبتهم اليوم . وعلى ذلك لا يكون مفر من أن أبعث من جديد بعض ما غبر من حياة الطفولة النفسية استناداً إلى شهادة الحاضر^(١) .

دعنا ننظر بادئ ذي بدء في علاقة الطفل بإخوته . لست أدري لماذا نفترض مقدماً أن هذه العلاقة لا بد أن تكون حياً . فمن ذا الذي لم ير بين الراشدين شواهد على شقاق الإخوة ؟ وكم يتاح لنا التحقق من أن هذا الشقاق قد تأصل في الطفولة وأنه لم ينقطع يوماً ! أضف إلى ذلك أن كثيراً من الراشدين الذين تربطهم اليوم بإخوتهم أواصر المودة وينصرونهم عند الشدة كانوا في طفولتهم يعيشون وإياهم على عداوة لا تكاد تلين . فالأكبر كان يسيء إلى الأصغر ويقهره ويسلبه لعبه ، في حين يضوى الأصغر مما به ، من غيظ العاجز المقهور . فهو يحسد أخاه الأكبر ويخشاه أو قد يستدير إلى مضطهده فيواجهه بأوائل ثوراته محبة للحرية وشعوراً بالعدل . هذا بينما يردد الوالدان أن أبناءهم لا يصطلحون ، دون أن يعرفوا لذلك سبباً . ولا يصعب أن نرى أن الطفل ولو كان حسن الطبع لا يحقق كل ما نأمل في رؤيته عند الراشد . فالأطفال أنانيون مطلقوا الأنانية ، وهم يشعرون بحاجاتهم شعوراً بالغ الشدة ، ويجهدون في إرضائها غير حاسبين لما عداها حساباً ، وبخاصة في وجه الغرماء من سائر الأطفال ، ومن الإخوة في المحل الأول . غير أننا لا نقول من أجل ذلك : إن الطفل « شرير » بل نصفه « بالرداءة » ؛ فهو لا يسأل عن سوء فعالة ، في نظرنا كما في نظر القانون . ومن العدل أن تكون الأمور كذلك ؛ فلنا أن نتوقع أن تستيقظ قبل ختام تلك الفترة المسماة طفولة نزعات غيرية ، وأن تستيقظ الأخلاق ، أو أن يأتي أنا ثان — بتعبير ماينيرت — فيغطي الأول ويكفه . ومن المحقق أن الأخلاق لا تظهر في كل النواحي في وقت واحد ، وأن مرحلة الطفولة اللاخلاقية يتفاوت طولها بتفاوت الأفراد . فإن وقف هذا التخلق عن النمو ، أحببنا الحديث عن « الانحلال » بينما الواضح أننا نواجه كفا في النمو . وأما بعد أن يغطي النمو اللاحق الطبع الأول ، فقد يعرى هذا الطبع ثانية ، على الأقل إلى حد في حالات المرض المسترى . والحق أن الشبه عجيب بين ما ندعوه الطبع المسترى وبين رداءة الأطفال . وأما العصاب القهري فيوافق

(١) أنظر " تحليل مخافة شاذة عند طفل في الخامسة " (فرويد ١٩٠٩ ب) . وكذلك مقالتي في " بعض النظريات الجنسية عند الأطفال " (١٩٠٨ ج) .

على العكس تخلفاً مفرطاً أريد به تعزيز القدرة على مغالبة ما يتحرك من جديد من الطبع الأول .

هناك إذن قوم كثيرون ممن يحبون اليوم إخوتهم ويستشعرون فداحة فقدان لو قد حق عليهم الموت ، وهم مع ذلك يضمرون لهم في لا شعورهم رغبات خبيثة من العهد الأول قادرة على أن تتحقق في الحلم . ولكن الذى يفيدنا هنا أكبر الفائدة هو أن نلاحظ مسلك صغار الأطفال إلى سن الثالثة أو الرابعة تجاه من يصغرونهم من أشقائهم وشقيقاتهم ؛ لقد ظل الطفل حتى ذلك الحين وهو الطفل الأوحده ، وها هو ذا يعلم اليوم أن اللقلق قد أتى بطفل جديد : إنه لينعم النظر في هذا الوافد الصغير ثم يعلن في عزم . « ليعده اللقلق من حيث أتى (١) » .

وإني لأعتقد وأنا جاد تمام الجد أن الطفل يعرف كيف يقدر تقديراً صائباً كل ما ينتظره على يد الدخيل الصغير . وها هي ذى سيدة من معارفى تربطها اليوم أحسن الروابط بأختها التي تصغرها بأربعة أعوام - تخبرنى أنها قد تلقت نبأ وفادة أختها لأول مرة بهذا التحفظ : « ولكننى لن أعطيها معطى الأحمر مهما يكن! » ومن هذا التاريخ تبدأ عداوة الطفل ولو لم يدرك موقفه إلا فيما بعد . وأعرف طفلة لما تبلغ الثالثة حاولت أن تخفق رضيعاً في مهده لأنها لم تستبشر بمحضره خيراً . والغيرة في هذا الوقت من الحياة شيء يستطيعه الأطفال بكل شدته ووضوحه . وهب الأخ الصغير أو الأخت قد خلى مكانه بالفعل عاجلاً ، وعاد الطفل يحتكر كل عطف المنزل ، ثم يأتي اللقلق بوافد جديد : أليس من المنطق أن يضم طفلة المدلل الرغبة في أن يلقي منافسه الجديد مصير سابقه حتى تسير الأمور بما يشئى ، شأنها في البدء وفيما بين الفترتين (٢) . ومن الطبعي أن يتفاوت مسلك الأطفال هذا تجاه من يولد بعدهم بتفاوت الأعمار . فقد يحدث إذا بلغ الفرق في السن حداً معيناً أن تستثار في الأخت الكبرى أول بشائر الغريزة الأموية تجاه هذا الوليد الذى لا عون له .

(١) وهانس البالغ من العمر ثلاثة سنوات ونصف السنة والذى كانت مخافته الشاذة موضوع التحليل المشار إليه في الهامش السابق - قد صاح وهو محموم حين ولدت أخته : ولكننى لا أريد أختاً صغيرة . ثم هو قد أعرب صراحة في أثناء عصابه - بعد ذلك بثمانية عشر شهراً - عن رغبته في أن تلقى أمه الطفلة في حجرة الاستحمام حتى تموت . ومع هذا كان هانس ولداً حسن الطبع ، عطفواً ، سرعان ما شفى بأخته الصغرى وشفى على الأخص بجأيتها .

(٢) إن حالات الموت التي يعاصرها الطفل على هذا النحو أمر قد تسارع العائلة إلى نسيانه ولكن البحث التحليل النفسى يرينا أن لها أهمية قصوى في المصاب الذى يجيء من بعد .

وما من شك في أن مشاعر العداوة بين الإخوة تزيد في سن الطفولة كثيراً عما يلحظه منها الراشدون الغافلون (١) .

ولقد ضيعت فيما يتعلق بأبنائي الذين تابعتوا الواحد إثر الآخر في تعاقب سريع فرصة إتيان مثل هذه الملاحظات . ولكنني أدرك اليوم ما فاتني مع ابن أخت صغير جاءه غريم أنثوى فأدخل الاضطراب على حكمه المطلق بعد أن دام خمسة عشر شهراً . نعم ، لقد سمعت أن الشاب الصغير يسلك بإزاء أخته مسلماً جد كريماً ؛ فهو يقبل يديها ويلاطفها . بيد أنني رأيت ما يقنعني بأنه قد أخذ - ولا يكمل الثانية - في استخدام قدرته اللغوية في نقد هذا المخلوق الذي لم يكن يبدو إلا نافلة : فهو كلما دار الحديث عنها أقحم نفسه وصاح متأففاً : « صغيلة جداً ، صغيلة جداً ! » ولا ترعرت الطفلة في الشهور الأخيرة وصارت من الكبر بما يرفع عنها هذه الزاوية ، التمس صاحبنا سنداً جديداً لزعمة أنها لا تستحق كل هذه الرعاية ، فلا تسنح فرصة إلا ذكرنا بأنها لا أسنان لها (٢) . ولا تزال أسرتنا جميعها تذكر عن البنت الكبرى لأخت لي أخرى كيف أخذت مرة - وكانت في السادسة - تلح ساعة كاملة على جميع عماتها ، تسألن لكي يؤيدنها : « إن لومسي لا تستطيع أن تفهم ذلك بعد ، أليس كذلك ؟ » وكانت لومسي منافستها التي تصغرها بعامين ونصف العام .

ولم أجد - مثلاً - بين جميع مريضاتي مريضة واحدة أخطأها هذا الحلم الدال على أقصى العداوة : بموت أخ أو أخت . لم أجد إلا استثناء واحداً لم يصعب تفسيره بما يؤيد القاعدة . فقد كنت أشرح هذا الوضع لإحدى السيدات في إخلال جلسات تحليلية لأنه بدا لي ذا حساب يحسب في العرض الذي كان مطروحاً على بساط البحث في ذلك

(١) إن ملاحظات لا يحصرها المد عن عداوة الأطفال في المبدأ نحو إخوتهم وأحد والديهم قد لوحظت ومجّلت في المؤلفات التحليلية منذ أن خلطت هذه السطور . ولكن الشاعر [السويسري] شيبتر قد صور لنا هذا المسلك الطفل المتعلّي تصورياً فريداً في صدقه وسذاجته استمدت من طفولته : « وكان هناك عدا ذلك - أدولف ثان : مخلوق صغير زعموا أنه أخى وإن كنت لا أفهم كثيراً وجه النفع منه ، وأفهم أقل لم يفعلون له مثلاً يفعلون لي أنا . لقد كانت نفسي تكفيني ، فا حاجتي لأخ ؟ وليته كان عديم النفع وحسب ! بل هو يزيد أحياناً فيصير عقبة : فإذا عاكنت جنق أراد أن يعاكسها مثل ، وإن خرجت للزفة جلس قبالي ، فلا يكون مناص من أن تتضارب بأقدامنا . »

(٢) وهذه الكلمات عنها قد استعارها أيضاً هانس الصغير وهو في الثالثة والنصف من عمره في نقده الجارف لأخته الصغيرة (ذات المرجع) . وكان يقدر أن عجزها عن الكلام راجع إلى افتقارها إلى الأسنان .

اليوم ، وإذا هي تجيبني لدهشى أنها لم تر مثل هذا الحلم قط . غير أن حتماً يبدو منقطع الصلة بالموضوع طراً ببالها ، وهو حلم أتاها في الرابعة - وكانت إذ ذاك أصغر أفراد الأسرة - ثم عاودها بعد ذلك تكراراً : جمع من الأطفال - كلهم من الإخوة والأقارب ، صبية وبنات - يزحفون في حقل ثم نجاة ظهرت لهم أجنحة ، فطاروا كلهم ثم اختفوا . ولم تكن الحاملة تملك أقل فكرة عن هذا الحلم . ولكن من السهل علينا أن نعرف أنه في صورته الأصلية التي لم تغير منها الرقابة إلا قليلاً لم يموت لإخوتها وأخواتها جميعاً . وأجازف إلى افتراض التحليل الآتي : عندما مات أحد هؤلاء الأطفال - وكانت الحاملة وإخوتها قد نشئوا هم وأولاد عم لهم في أسرة واحدة - اتجهت الحاملة - ولما بلغت الرابعة - إلى أحد الكبار العاقلين تسأله : ما الذي يحدث للأطفال حين يموتون ؟ ولا بد أنه أجابها : تنمو لهم أجنحة ويصبحون ملائكة صفارا . ونحن نرى في الحلم الذي أعقب هذه الإفادة أن إخوة الحاملة قد صارت لهم جميعاً أجنحة كالملائكة وأنهم - وهنا المهم - قد طاروا بعيداً ، ولم يبق سوى صغيرتنا صانعة الملائكة^(١) ، وتأمل : إنها الباقية الوحيدة من الحشد كله ! وأما أن يزحف الأطفال في حقل قبل طيرانهم فهو ما لا نكاد نجانب الصواب إذ نرى فيه إشارة إلى الفراشات ، وكأنما كانت الطفلة مسوقة بذلك التداعي الفكري الذي ساق القدامى إلى أن يصوروا الروح في صورة فراشة ذات أجنحة .

وهنا قد يعترض البعض قائلاً : « نسلم بأن الأطفال عرضة لدفعات عدائية نحو إخوانهم ، ولكن أنى لقلب الطفل أن يبلغ من الفساد إلى تلك القمة ، حتى ليشهى موت من نafسه أو قوى عليه من رفاق اللعب ، كأنما كان لا يعرف غير الموت عقاباً لكل جريمة ؟ » بيد أن قائل مثل هذا الكلام ينسى أن فكرة الطفل عن « الموت » لا تحمل - بعد اللفظ - إلا أقل الشبه بفكرتنا نحن . فما يعلم الطفل شيئاً من شناعة الفساد ، ومن الرعدة في قبر بارد كالثلج ، ومن هول العدم الأبدي - وكلها أمور قلما احتمل الكبار تصورها ، دليل ذلك كل الأساطير المنسوجة حول العالم الآخر . فالخوف من الموت غريب عن الطفل ، ومن ثم كان لعبه بالكلمة الهائلة والتجاؤه إليها لكي يهدد بها أحد الرفاق : « ستموت لو عدت إلى ذلك مثلما مات فرانتس » .

(١) [صانعة الملائكة تعبير يقال للقابلية التي تزاوِل عمليات الإجهاض - من كونها تقتل الأولاد ولما يولدوا

فيصبرون ملائكة .]

وتسرى العرشة في الأم المسكينة ، ولعلها لا تستطيع أن تنسى أن الشطر الأكبر من البشر مواليد الأرض لا تتجاوز حياتهم سنى الطفولة . بل لقد يبلغ الطفل الثامنة ثم لا يزال قادراً على أن يقول لأمه وقد عاد إلى المنزل من جولة في متحف التاريخ الطبيعي : « ماما ، ما أكثر حبي لك ! إذا مت فسأجعلهم يحشونك ، وسأضعك هنا ، في هذه الغرفة ، حتى أستطيع رؤيتك دائماً ، دائماً . » إلى هذا المدى يختلف الطفل منا في تصوره للموت (١) .

ولما كان الطفل يجنب فوق ذلك مشاهدة آلام الاحتضار ، فالموت عنده يعنى إلى حد كبير « الغياب » ، الكف عن إزعاج الأحياء المتبقين . وهو لا يميز بين أسباب هذا الغياب ؛ أسفر أم طرد أم غربة أم موت (٢) . فلو أن طفلاً طردت مربيته وهو مازال بالمرحلة قبل التاريخية ثم ماتت أمه بعد ذلك بقليل ، لتطابق الحدثنان في ذهنه وكونا سلسلة واحدة — كما يكشف عنه التحليل . وأما أن الطفل لا يفقد الغائب كثيراً فهذا ما تعلمه الكثيرات من الأمهات لحسرتن حين يعدن إلى دورهن بعد أسابيع قضينها في إجازة الصيف فيقابلن بهذا النبأ : أن الأطفال لم يسألوا عن أمهم مرة واحدة . فإن ذهبت الأم حقيقة إلى هذه « الأرض المجهولة التي لا يعود منها راحل » بدا على الطفل للوهلة الأولى أنه نسيها ولم يأخذ إلا من بعد في تذكر موتها .

وهكذا إذا رأى طفل ما يدعو إلى أن يتمنى غياب شخص آخر ، فليس ما يمنعه من أن يلبس أميته هذه لبوس الرغبة في الموت ، كما أن الاستجابة النفسية إلى الأحلام

(١) لقد أدعشني أن أسمع ولدا في العاشرة على الذكاء وهو يقول على أثر وفاة والده وفاة مفاجئة : " إني أفهم أن يكون والدى ميتا ، ولكنى لا أرى لم لا يحضر إلى المنزل للعشاء . " ويجد القارئ مادة أخرى تتصل بهذا الموضوع في الباب الذى تشرف على تحريره الدكتور هـ . فون هوج - هلموت تحت عنوان " نفس الطفل " بمجلة Imago ، المجلدات ١ - ٥ ، ١٩١٢ - ١٩١٨ .

(٢) أتى أحد الآباء من لم الإمام بالتحليل النفسى ملاحظة أرتة اللحظة التي أدركت فيها ابنة له في الرأية على نمو عقل كبير ما هو الفرق بين " الموت " و " البعد " . ذلك أنها سلكت على المائدة سلوكاً مزعجاً بعض الشيء وأحسنت أن إحدى الخادومات تنظر إليها في غير استحسان فأعربت لوالدها عن شعورها قائلة : " أود لو ماتت جوزيفين ! " فسألها والدها مهدئاً : " ولم الموت ؟ ألا يكون أن تبعد ؟ " فأجابت الطفلة : " كلا ، وإلا عادت ثانية . " إن محبة الذات المطلقة عند الأطفال (الترجسية) تجعلهم يرون في كل تدخل جريمة ساس بالذات الملكية ، ومشاعرهم - مثل قوانين دراكون - لا تعرف لكل جريمة من هذا القبيل إلا تلك الصورة من العقاب التي لا تحتل وسطا .

المنطوية على رغبات في الموت ترينا أنه مهما تنوع محتوى هذه الرغبات عند الطفل فهي تعنى مع ذلك على نحو من الأنحاء ما تعنيه نظيراتها عند الراشدين .

ولكن إذا كانت رغبة الطفل في موت إخوته وأخواته تجد ما يفسرها من أنانيته التي تجعله يرى في هؤلاء منافسين له ، فكيف نفسر رغبته هذه تجاه والديه اللذين يمنحانه الحب ويقضيان له حاجاته واللذين كان يخلق بأنانيته تلك أن تدعوه إلى اشتهاه بقائهما ؟ هذه صعوبة يهديننا إلى حلها ما نلاحظه من أن الحلم بموت الوالدين يصيب في الغالبية الغالبة من كان من الزوجين الوالدين يشارك الحلم جنسه ؛ فالرجل يحلم في الأغلب بموت الأب وتحلم المرأة بموت الأم . ولست أستطيع أن أدعى لتلك القضية عموم القاعدة ، ولكن غلبة الاتجاه الذي أشير إليه بيته إلى حد يتطلب تحليلها بعامل ذي قيمة كلية كذلك^(١) : إن الأمور تجري - إذا تركنا كل تعبير مخفف - كما لو كان نمت إثمار جنسى يستشعره الطفل وهو في باكورة الحياة ، كما لو كان الصبي يرى في أبيه - والفتاة في أمها - غريماً لن يصيبه من إزاحته غير النفع .

وإنه ليجدر بنا هنا أيضاً - قبل أن ننبد هذه الفكرة معتبرين إياها فكرة شعاء - أن نكتب النظر إلى العلاقات الحقيقية بين الوالدين والأبناء . وعلينا بنوع خاص أن نفرق بين تلك العلاقة كما يريدنا واجب التقوى البنيوية الذي يقتضيه العمران وبين ما يتكشف بالملاحظة اليومية أنه واقع تلك العلاقة : إن وراء العلاقة بين الوالدين والأبناء لأكثر من مناسبة من مناسبات العداوة ، وإنها لعلاقة تزدهم في وفرة ما بعدها وفرة بكل العوامل التي تبعث على رغبات لا يمكن أن تواجه الرقابة . ولنقفن بادئ ذي بدء على العلاقة بين الأب والابن : إنى أعتقد أن القداسة التي أسبغناها على ما سته الوصايا العشر من نواه قد أعمت أبصارنا عن إدراك الحقيقة الواقعة . ولعلنا لا نكاد نجرؤ على ملاحظة أن الشطر الأعظم من أبناء النوع الإنساني ينجرون عن طاعة الوصية الرابعة^(٢) . فتقوى الأبناء نحو آبائهم - في أسفل مراتب المجتمع كما في أعلاها - تطفئ عليها عادة مطامع أخرى . والبلاغ الحالك الذي ينحدر إلينا عبر الملاحم والأساطير عن العصور الأولى للمجتمع

(١) [١٩٢٥ :] إن الفموض كثيرا ما يشمل هذا الموقف لظهور دافع عقابي يهدد الحلم بموت من يجب من الوالدين على سبيل الجزاء الخلق .

(٢) [" أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إهلك . " (خروج ، ٢٠)]

الإنسانى يرينا ما لا تطرب له النفس من مطلق سلطان الأب ومن قساوته في مزاوله هذا السلطان . فكرونوس قد التهم أبناءه مثلما يفعل الخنزير الوحشى بخلف أنثاه ، وجاء زوس فأخصى أباه (١) ونصب نفسه سيداً في مكانه . وكلما خلا سلطان الأب في العائلة من كل قيد ، وجد الابن نفسه بالضرورة - وهو الوريث المنتظر - في موقف العدو من أبيه ، ونفد بالضرورة صبره وهو يترقب الظفر بالسيادة عبر موت أبيه . ولا يزال الأب في طبقتنا المتوسطة يأبى على ابنه الاستقلال ويأبى عليه العدة لبلوغه ، متعهداً بذلك بذور العداوة التى تكمن بطبيعتها في هذه العلاقة . وكثيراً ما يتاح للطبيب أن يلاحظ كيف يعجز حزن الابن لفقد أبيه عن قمع فرحه إذ يظفر أخيراً بحريته . وكل أب يتشبث اليوم يائسا بما يتبقى في عصرنا من « سلطة لرب العائلة » (٢) صارت إلى قدم لا يذكر بالخير ، وكل كاتب - مثل لايسن - يبرز هذا الصراع الأزلئ بين الآباء والأبناء إلى مكان الصدارة من كتاباته فله أن يكون على ثقة من أنه محدث في النفوس أثراً . وأما البنت وأما فتنشأ فرص النزاع بينهما حين تشب البنت فتري في أمها رقيباً عليها ، على حين تطمح هى إلى الحرية الجنسية ، هذا بينما ترى الأم من ناحيتها في تفتح ابنتها نذيراً ينذرها أن قد حان وقت النزول عن مطالبها الجنسية .

كل هذا ظاهر يملأ أعين الجميع . لكنه لا يعيننا على ما نستهدفه من تفسير الأحلام بموت الوالدين عند أناس رسخت تقواهم نحو والديهم رسوخاً وطيداً منذ زمن طويل . أضف أن المناقشات السابقة قد أعدتنا لأن نعلم أن رغبة الموت تجاه الوالدين تنبعث جذورها من الطفولة الأولى .

إن هذا الفرض يتأيد تأييداً لا يتطرق إليه أدنى شك بالنسبة إلى العصابين الذين يأخذون في التحليل النفسى . فنحن نعلم عندئذ أن رغبات الطفل الجنسية - إذا كانت هذه الرغبات تستحق هذا الوصف وهى لا تزال في طورها الجنينى - تنشأ منذ وقت مبكر ، وأن أول نزوع الفتاة يكون لأبيها كما تتجه رغائب الولد أول ما تتجه إلى أمه ،

(١) أو ذلك ما ورد في بعض الأساطير . وفي روايات أخرى أن الإخصاء إنما أوقمه كرونوس على أبيه أورانوس . ولمعرفة المغزى الأسطورى الذى لهذه المسألة اقرأ رانك ، ١٩٠٩ ، وكذلك رانك ١٩١٢ ج ، الفصل التاسع ، القسم الثانى .

(٢) [potestas patris familiaris ، الإشارة هنا إلى نظام العائلة الرومانية وسلطة الأب فيها .]

وبذلك يصبح الأب للولد - مثل الأم للبنت - مزاحماً مزعجاً ، ولقد رأينا من قبل - فيما يتعلق بالإخوة - كيف يكنى الشيء القليل من مثل هذا الشعور في سوق الطفل إلى اشتها الموت للغريم . ويظهر مثل هذا الإيثار عادة عند الوالدين كذلك ؛ فهناك نسبة طبيعية ترعى الأمور بحيث يدلل الزوج ابنته الصغيرة وتأخذ زوجه جانب الابن ، بينما يعمل كلاهما - هذا إذا لم يفسد حكمهما سحرُ الجنس - على تنشئة صغارهما تنشئة دقيقة . ويلحظ الطفل هذا الإيثار تمام الملاحظة ويتقلب على الجانب الذى يعارضه من الزوجين الوالدين ؛ فالحظوة بحب الراشد لا تشبع حاجة بعينها من حاجات الطفل وحسب ، إنها تعنى بنوع أخص أن رغبتة مجابة فى كل ناحية أخرى من النواحي . وهكذا يتبع الطفل دافعه الجنسي ويزيد فى الوقت عينه نزوع والديه حدة جديدة ، حين يتفق اختياره بينهما واختيارهما .

ومن عادتنا أن نغض النظر عن معظم علائم هذه النزاع الطفلية ، بيد أننا نستطيع مع ذلك أن نلاحظ بعضها حتى بعد انقضاء السنوات الأولى من الطفولة : فأنا أعرف فتاة فى الثامنة لا يدعو أمها داع إلى المغيب عن المائدة دون أن تنتهز الفرصة لتعلن أنها قد خلفتها : « سأصبح أنا ماما الآن . كارل ، أتريد مزيداً من الخضر ؟ خذ بعضاً من فضلك ! » وهكذا . ولقد شفت هذه الناحية من سيكولوجية الطفل شفافية خاصة عند طفلة فى الرابعة على جانب ملحوظ من الحيوية والذكاء ، كانت تقول : « الآن تستطيع ماما أن تذهب ، وستزوجنى بابا بعد ذلك على التأكيد . وأصبح أنا زوجه » - هذا دون أن تتنافى هذه الرغبة عند الطفلة مع حبها أمها حباً ملؤه الحنان . وإذا أبيع لطفل أن ينام إلى جانب والدته والدة مسافر ثم أعيد مكرها فور رجوعه إلى غرفته المعتادة حيث ينام مع شخص آخر لا يحبه إلا حباً يقل كثيراً عن حبه لأمه ، كان من السهل أن تنشأ عنده الرغبة فى أن يظل والده غائباً على الدوام حتى يتمكن من استبقاء أمه الحبيبة بالحيلة على الدوام . وجلى أن من الوسائل إلى ذلك أن يصبح الأب فى عداد الأموات ؛ فقد علم الطفل من تجربته شيئاً : هو أن الموتى يظلون دائماً على غيبهم - مثل جده - ولا يرجعون منها إلى أبد الأبدين .

هذه الملاحظات قبل الأطفال الصغار وإن وافقت التفسير الذى أقرحه دون أن نحملها مالا تحتمل ، لا تجلب مع ذلك مطلقاً هذا الاقتناع الكامل الذى يفرضه على

الطبيب تحليل الكبار الراشدين . فالأحلام التي نحن في صددنا ترد هنا مصحوبة بمقدمات يستحيل معها تجنب تفسيرها . بغير كونها أحلام رغبة . ولقد وجدت يوماً إحدى مريضاتي مكتئبة دامعة وقالت المريضة لي : « إنني لا أريد أن أرى أقربائي أبداً ، لا بد أنهم يرتعدون مني فرقاً . » ثم أردفت تقول - من غير ما صلة تقريباً - : إنها تذكر حلماً من أحلامها ، وإن تكن بالطبع لا تفقه شيئاً من معناه . هذا الحلم قد أتانا في الرابعة ، وهذا هو نصه : يحول فهد أو ثعلب^(١) على سطح البيت ، عندئذ يسقط شيء من أعلى ، أو هي نفسها قد سقطت ، ثم تحمل أمها ميتة إلى خارج المنزل - وهنا تنحب الحاملة نحيباً موجعاً . وما كدت أخبرها أن هذا الحلم لا بد يعني رغبة أضمرت بها وهي طفلة في أن ترى أمها ميتة وأن هذا الحلم ولا شك هو الذي جعلها تظن أن أقرباءها يرتعدون منها فرقاً ، حتى أسلمتني مادة ألقنت على الحلم الضوء : ذلك أن « عين الفهد » شتيمة رماها بها ولد من أولاد الأزقة وهي لا تزال صغيرة جداً ، ثم إن حجراً قد سقط من السطح وهي في الثالثة والنصف فأصاب رأس أمها وأدامها غزيراً .

وأتيح لي مرة أن أدرس درساً وافياً فتاة مرت بحالات نفسية متقلبة : فقد بدأ مرضها بحالة من الهيجان الخلطي ، كانت تبدى في خلالها نفورا بالغ الشدة من أمها ، تضربها وتشتتمها كلما اقتربت من سريرها ، بينما ظلت في الوقت عينه على حبها وانطباعها لأخت تكبرها كثيراً ، ثم أعقبت هذه حالة من صفاء الذهن ، وإن صاحبها شيء من الحمود الانفعالي مع اضطراب في النوم . وفي هذه المرحلة أخذت في علاجها وتحليل أحلامها ، وكان عدد عظيم منها يدور - على نحو يزيد أو ينقص استخفاء - حول موت أمها : فهي طورا تشترك في تشييع جنازة امرأة عجوز ، وطوراً آخر تجلس مع أختها إلى المائدة وقد ارتديتا ثياب الحداد - بحيث لم يعد هناك أقل مجال للشك في معنى هذه الأحلام . فلما زادت حالها تحسناً أخذت مخاوف هستيرية في الظهور . وكان أشد هذه المخاوف تعدياً لها الخوف من أن تصاب أمها بمكروه ؛ فكانت - حينها كانت - تضطر إلى أن تعجل بالعودة إلى المنزل ، حتى تقتنع بأن أمها لا تزال حية ترزق . هذه الحالة - هي وتجاريبي الأخرى مجتمعة - قد علمتني الشيء الكثير ؛ فهي قد أرزني - فيما يشبه الترجمة إلى لغات مختلفة - تنوع الطرق التي يستجيب بها الجهاز النفسي إلى فكرة

(١) [هناك جناس شديد بين اسمي هذين الحيوانين في الأصل : Fuchs و Luchs .]

مهيجة : ففي حالة الهيجان - التي أتصورها على أنها طغيان النظام النفسى الأول الذى يظل فى العادة مكبوتاً على النظام النفسى الثانى - يجد العداء نحو الأم متنفساً حركياً قوياً ، فلما أخذت الحالة فى الهدوء وقمعت الثورة واستتب سلطان الرقابة من جديد ، لم يبق لعداوتها من مجال مفتوح غير مجال الحلم تحقق فيه رغبتها فى موت أمها ، ولما قويت الحالة السوية بعد ذلك ظهر قلقها المفرط على أمها من حيث هو استجابة هستيرية مضادة وظاهرة من ظواهر الدفاع . وهنا لا يعود يغمض علينا لم كان من الشائع إلى هذا المدى أن تتعلق الفتيات الهستريات بأمهاتهن فى تحنان زائد .

وأناحت لى فرصة أخرى أن أسبر غور الحياة اللاشعورية عند شباب فى مقتبل العمر كاد عصابه القهرى أن يعجزه عن الحياة . فهو لم يكن يخرج إلى الطريق ؛ لأنه إذا خرج عذبه الخوف من أن يقتل كل من مر به . وكان يقضى أيامه وهو يفكر فى دليل يثبت به براءته إذا وقعت جريمة قتل فى المدينة وأخذ هو يجريرتها - وغنى عن البيان أن هذا الشاب كان على مقدار عظيم من علو الخلق والثقافة على السواء . لقد بين التحليل (وهو تحليل أدى إلى شفائه) أن أساس هذه الفكرة القهرية الأليمة كان دافعاً إلى القتل يستهدف أباه ، وكان هذا الأب على صرامة لا تخلو من بعض الغلو . ولقد أعرب المريض لفرط دهشه عن هذا الدافع إعراباً شعورياً وهو فى السابعة من عمره ، وإن كانت نشأة الدافع ترجع بالطبع إلى ما قبل ذلك كثيراً من سننى الطفولة . فلما قضى الأب بعد مرض حفل بالعذاب ركب المريض - وكان فى الحادية والثلاثين - تأنيب قهرى تحول إلى الغرباء فى صورة هذه المخافة . وكأنما كان المريض يحدث نفسه قائلاً : إن من استطاع أن يرغب فى أن يدفع أباه من قمة جبل عال إلى هاوية سحيقة لا يمكن أن يؤتمن بحال من الأحوال على احترام حياة الغير ممن هم أقل قرباً إليه ؛ ولهذا كان صواباً منه أن يلزم غرفته حبيساً .

وتشهد خبرتى - وهى خبرة بلغت مدى واسعاً - بأن الوالدين يقومان بالدور الرئيس فى الحياة النفسية الطفولية لكل من صار فى مستأنف حياته عصابياً . فحجة أحد الوالدين وكراهية الآخر من المقومات الجوهرية فى خزانة الاندفاعات النفسية التى تتكون فى ذلك الوقت والتي تملك أكبر الأهمية فى تشكيل أعراض العصاب الذى يبعث بعد ذلك . بيد أننى لا أعتقد أن العصبيين يختلفون فى هذه الناحية اختلافاً جوهرياً من أولئك

الذين يظنون سوين أى أنهم يملكون القدرة على أن يخلقوا شيئاً جديداً مطلق الجدة ،
 خاصاً بهم كل الخصوص . بل الذى يرجح ذلك كثيراً وتؤيده أيضاً الملاحظات العارضة
 عن الأطفال السوين هو أن العصبيين بمشاعرهم هذه - من حب وكره نحو والديهم -
 إنما يطلعوننا فى صورة مكبرة على ما يعتمل فى نفوس معظم الأطفال بوضوح أقل وشدة
 منقوصة . ولقد جاءتنا من الزمن القديم أسطورة لا سبيل إلى أن نفهم فعلها العميق
 الشامل فى النفوس إلا إذا كان الفرض الذى قدمته فى سيكولوجية الطفل صحيحاً كذلك
 صحة شاملة .

وأنا أشير هنا إلى أسطورة الملك أوديب وإلى مسرحية سوفوكليس التى تحمل
 اسمه : ولد أوديب من لا يوس ملك طيبة ومن زوجه يوكاستا ، وأتى به إلى العراء وهو
 بعدُ رضيع ، لأن نبوءة أعلمت لا يوس - وابنه ما زال بالرحم - أن ابنه هذا سوف يكون
 قاتله . إلا أن منقداً أنقذه وشب الطفل ولياً للعهد فى بلاط أجنبي إلى أن خامره الشك
 فى أصله فراح بدوره يستفسر العرافة فأندرتة إياه والإقامة فى وطنه ؛ فقد قضى عليه أن
 يقتل أباه وأن يأهل أمه . وبينما هو هائم على وجهه فى طريق يبعده عما يظن أنه وطنه إذا
 هو يلتقى بالملك لا يوس فيصرعه فى قتال نشب على غرة . وأقبل بعدها إلى طيبة ، وهناك
 حل لغز أبى الهول (١) الذى كان يعترض الطريق إلى المدينة فنصبه الطيبون ملكاً عليهم
 عرفاناً منهم بجميل صنعه ، وأهدوا إليه يد يوكاستا . وظل أوديب يحكم دهرأً آمناً معزراً ،
 وأعقبته له أمه المجهولة منه ولدين وابنتين ، إلى أن نزل وباء فكان سبباً فى أن يذهب
 الطيبون فى سؤال العرافة من جديد . وهنا تبدأ مأساة سوفوكليس : يعود الرسل بهذا
 البلاغ : ينقطع الوباء إذا ارتحل قاتل لا يوس عن الديار . ولكن بأى أرض هو ؟

« أين نجد هذا الأثر الخفى لجريمة غابرة ؟ »

(السطر ١٠٩)

ولا تقوم المعالجة المسرحية فى شىء آخر سوى الإفضاء - إفضاء تتزايد الإثارة فى
 سياقة رويدا رويدا ويتم بعد تعويقاً ماهر ، حتى لتجوز مقارنته بسير التحليل النفسى
 - بأن أوديب نفسه هو قاتل لا يوس وأنه أيضاً ولده ، منه ومن يوكاستا . ويرتاع

(١) [لغز أبى الهول فى أشهر صيته هو الآق : من ذا الذى إذا طلع النهار سار على أربع ، فإن انتصف
 نعل اثنتين ، فإن ضرب إلى المنيب فعل ثلث ؟ والجواب هو : الإنسان - الذى يستند إلى العصا فى شيخوخته .]

أوديب ليهول ما أتى غير عالم ، فيفقأ عينيه ويهجر وطنه . وهكذا تصدق النبوءة .

« أوديب ملكا » تدخل بين ما يعرف باسم مأسويات القدر . ويقال : إن تأثيرها المأسوي يقوم في التضاد بين مشيئة الآلهة القاهرة وبين محاولة الإنسان سدى أن يجنب نفسه الويل الذى يتهده . ويقال أيضاً : إن الدرس الذى يخرج به من شهد المسرحية فلكتته — هو الاستسلام للمشيئة الإلهية والبصر بقله حوله . وعلى ذلك أراد المؤلفون المحدثون أن يبلغوا مثل هذا التأثير المأسوي ، فحاكوا هذا التضاد عينه في خيال من عندهم . ولكن المشاهدين ظلوا لم يحركوا ساكناً وهم ينظرون كيف تنفدُ عرافة أو نبوءة مهما بذل برىء في دفعها ؛ إن مأسويات القدر المحدثه لم تصب وقعاً .

فإذا كانت « أوديب ملكا » تهم اليوم معاصرنا مثلما هزت من عاصرها من الإغريق ، فلا تفسير لذلك إلا أن وقعها لا يقوم على ما بين القدر وإرادة الإنسان من التضاد ، وإنما ينبغى علينا أن نلتمس سر هذا الوقع في طبيعة المادة التى تشخص بها هذا التضاد . أو قل : إنه لا مناص من أن يكون ثمت صوت يُعِدُّنا لأن نعرف قوة القدر للطاغية في أوديب ، على حين يسعنا الزهد في مواقف من قبيل ما يحاك في « الجدة » [لجريلبارتسر] أو غيرها من مأسويات القدر المحدثه زهدنا في نتاج لم يمله سوى هو صاحبه . وقصة الملك أوديب تشتمل حقيقة في طياتها على عامل من هذا القبيل : فما يحركنا مصيره إلا لأنه مصير قد كان يمكن أن نصير إليه ، لأن النبوءة قد صبت علينا — ولما نولد — تلك الدعوة التى صبت عليه ؛ فلعله قد قدر علينا أجمعين أن نتجه بأول نزوعنا الجنسى جهة الأم وبأول البغضاء ورغبة الدمار جهة الأب ، وأحلامنا تقنعنا بأن الأمر كذلك . فما عدا أوديب الملك الذى قتل أباه لايوس وتزوج أمه يوكاستا أن يحقق رغبات من طفولتنا . بيد أننا ونحن أسعد منه حظا قد نجحنا في أن نتحول بنوازعنا الجنسية عن أمهاتنا وفي أن ننسى غيرتنا من آبائنا — نجاحاً يقاس بمقدار نجاحنا في ألا نصير عصابيين . ولكن ، ها هو ذا البعض تحققت عنده هذه الرغبات وليدة الزمن الأول : إن الرعدة لتسرى فينا وإنا لندبر بعدا عنه ، لا تدخر في ذلك طاقة من الكبت الذى ألبم منذ إذ ذاك هاته الرغبات في دخيلتنا . فالشاعر إذ يخرج إلى الضوء — بينا ينقب في الماضى — جرم أوديب هذا لا يترك لنا محيصاً عن أن نعرف دخيلتنا ، دخيلتنا التى لا تفتأ هاته الدفعات ماثلة فيها وإن قمعت . والتقابل الذى تودعنا الجوقه على صورته :

« أنظروا أوديب هذا ، من حل اللغز الذائع الصيت وكان رجلاً فاق الرجال اقتداراً ، من كان المواطنين جميعاً يرمقون حظه في حسد ، أنظروا في أي بحر من الشقاء يقذف به! » (١)

هذا التقابل تحذير يصيبننا ويصيب كبرياءنا ، نحن الذين صرنا — في اعتقادنا — على هذه الدرجة من الحكمه ومن القوة منذ أن شيعنا سنى الطفولة ؛ فنحن نعيش — مثل أوديب — على جهل بهذه الرغبات المنافرة للأخلاق ، التي فرضتها الطبيعة علينا ، ولئن كشفت لأردنا أيضاً لو نغمض الطرف عن مشاهد طفولتنا. (٢)

فأما أن أسطورة أوديب قد نبعت من مادة حلمية قديمة أزلا ، متصلة بهذا الاضطراب الأليم الذى يتتاب علاقة الطفل بوالديه من جراء نزعاته الجنسية الأولى — ذلك ما يجد في نص مأسوية سوفوكليس إشارة لا شبهة فيها . فها هي ذى يوكاستا ترفه عن أوديب — ولم يكن قد استنار بعد ولكن ذكرى النبوءة أخذت تشيع الاضطراب في نفسه — فإذا هي تشير إلى حلم يأتي حقيقة أناسا كثيرين لكن دون أن يعنى ذلك — في زعمها — شيئاً :

« كم من مائت قبلك ضاجع في الحلم أمه ، ولكن يسهل عبء العيش لمن لم يلق

إلى ذلك بالا . » (سطر ٩٨٢ وما بعده .)

واليوم كما في ذلك الوقت يحلم الكثيرون بمضاجعة الأم ويروون أحلامهم مستكفين ، متعجبين . ومن السهل أن نفهم أن هذا الحلم هو مفتاح المأسوية والجزء المكمل للحلم بموت الأب . قصصه الملك أوديب استجابة من الخيلة إلى هذين الحلمين التخطيين جميعاً . وكما أن هذه الأحلام تصحبها — حين تقع للراشدين — مشاعر شتى من النفور فقد حق كذلك أن تضم الأسطورة في طياتها الارتياح وإيقاع العقاب بالنفس . وأما التحوير الذى يجيء بعد ذلك فنشأه مرة أخرى أن المادة تراجع هنا أيضاً مراجعة ثانوية خاطئة تهدف إلى استخدامها في أغراض لاهوتية . (أنظر مادة أحلام الاستعراض في ص ٢٦٠

(١) [سطر ١٥٢٤ وما بعده .]

(٢) ليس بين مكشفات التحليل النفسى ما لقي من النقااض الممرورين المدافعة المستميتة — ومن الخدلة. النقدية الطريفة كذلك — ما لقيته هذه الإشارة إلى النزوع الطفلى الذى يظل متبقيا في اللاشعور إلى الزنا بالمحارم بل لقد حاول البعض أخيراً — رغم كل ما تظهره التجربة — ألا يتركوا للزنا بالمحارم غير قيمة « رمزية » . — هذا وقد أتى فرنسى (١٩١٢) بتفسير إضافي بارع لأسطورة أوديب اعتمد فيه على فقرة من خطاب لشوبنهاور . كما ظهر من مواصلة البحث أن « مركب أوديب » الذى أشير إليه للمرة الأولى في هذه الفقرات من « تفسير الأحلام » أهمية لم تكن نحلم بها في فهم التاريخ الإنساني وتطور الدين والأخلاق (أنظر : الطومب والتابو ، (١٩١٣) .

وما بعدها .) ولكن كان من الحتم أن تخفق محاولة التوفيق بين القدرة الآلهية المطلقة وبين المسؤولية الإنسانية ، في صدد هذا الموضوع كما في غيره .

وهناك مآثرة أخرى من مآثر الشعر المأسوي تضرب جذورها في ذات التربة التي تضرب فيها أوديب ملكا: تلك هي «هاملت» شكسبير. بيد أن المعالجة المختلفة للمادة الواحدة تجلو لنا كل الفرق في الحياة النفسية بين هذين العصرين المتباعدين تباعداً كبيراً من عصور الحضارة ، وأخى بهذا الفرق تقدم الكبت عبر القرون في الحياة العاطفية للبشرية. ففي «أوديب» يظهر جهازاً ذلك التخيل الذي يجيب رغبة الطفل والذي تقوم عليه المأسوية ، ويتحقق كما قد يتحقق في حلم . فأما «هاملت» فيظل فيها هذا التخيل مكبوتاً ، ولا نعلم عن وجوده شيئاً إلا بما يظهر من عواقب كفه - شأن الحال مع العصايين . والعجيب أنه يتبين أن ما تملكه المأسوية الأحدث من وقع طاغ في نفوس الناس لا يتعارض مع بقائهم من أمر طبع البطل في ظلمة مطلقة . فالمسرحية تقوم على تردد هاملت في إنفاذ الانتقام الذي وكل إليه ، ولكن ما هي أسباب هذا التردد أو دواعيه ، ذلك مالا ينبس النص بحرف عنه وبذلت في تفسيره محاولات لا تحصى فما أتت بطائل . فهاملت في نظرة أصلها جوته^(١) ولا تزال لها الغلبة حتى اليوم يمثل هذا الطراز من الرجال الذين شلت عندهم القدرة على العمل المباشر : شلها نمو العقل نمواً مفرطاً («أسقمه الفكر الشاحب») . وفي نظره أخرى أن الشاعر قد أراد أن يصور لنا طبعاً مريضاً مذنباً شارف النوراستانيا. بيد أن المسرحية ترينا أن هاملت بعيد كل البعد عن أن يصور في صورة إنسان فقد كل قدرة على العمل . فنحن نراه يعمل مرتين : الأولى في فورة مباغتة حين يطعن السامع المسترق من وراء الستار ، وأما الثانية فعن قصد مبيت بل في مكرجم ، وذلك حين يرسل برجلي البلاط إلى الموت الذي كان مدبراً له هو ، مبدئياً في ذلك كل التحلل الخلقى الذي يمكن أن يتصف به أمير من أمراء عصر النهضة . فما الذي يوقفه على هذا النحو في إنفاذ المهمة التي كلفه شبح أبيه إياها؟ الجواب نجده مرة أخرى في الطبيعة الخاصة لتلك المهمة . إن هاملت يستطيع أن يأتي كل شيء إلا أن يثار من الرجل الذي أزاح أباه واحتل مكانته عند أمه ، الرجل الذي يريه - إذن - رغباته الطفلية وقد تحققت . وهكذا يحل عنده محل الاستبشاع الذي كان كفيلاً أن يدفعه إلى الانتقام تأنيب النفس

(١) « فيلهم ما يشتر » ، سنوات التعلم ، الكتاب الرابع ، الفصل ١٣ .

وتخوف الضمير بذكرانه أنه لا يفضل بحرف ذاك الخاطئ الذي كلف عقابه . وأنا إذ أقول ذلك أترجم في عبارة شعورية ما كان مقرراً بقاؤه لا شعورياً في نفس البطل . فإن أراد البعض أن يدعو هاملت هسريا ، لم أجد إلا أن أسلم بأن تلك نتيجة تخرج من تفسيري . ويتسق وذلك أحسن الانساق ما يعرب عنه هاملت في حديثه مع أوفيليا من نفوره من الحياة الجنسية ؛ هذا النفور الذي كان مقدراً أن يزيد على الدوام تمكنا من نفس الشاعر في مستأنف سنواته حتى بلغ التعبير عنه أقصاه في « تيمون الأثيني » — فما يظالنا في هاملت بالطبع سوى الحياة النفسية للشاعر . وإني لألحظ في كتاب جورج براندس (١٨٩٦) قوله : إن شكسبير كتب هذه المسرحية فور موت أبيه (١٦٠١) أي حين كانت وطأة الحزن عليه في أشدها وحين بعثت في نفسه من جديد — كما يحق لنا افتراضه — مشاعره الطفلية نحو والده . ومن الأمور المعلومة كذلك أن ولد شكسبير الذي مات في سن مبكرة كان يحمل اسم هامنت (وهو ما يطابق هاملت) . وكما أن هاملت تعالج العلاقة بين الابن والوالدين ، كذلك تدور « ماكبث » المكتوبة قرب تلك الفترة حول موضوع العقم من الخلف . هذا ، سوى أنه كما أن جميع الأعراض العصابية — شأن الحلم ذاته — تقبل أكثر من تفسير واحد ، لا بل هي تقتضى مثل هذا التفسير المضاعف إذا نحن أردنا أن نفهمها حق الفهم ، كذلك كل خلق فني صادق : فهو يصدر عن أكثر من دافع واحد وعن غير هائج واحد بنفس الشاعر ، وهو يفسح المجال لأكثر من تفسير . فما حاولت هنا إلا أن أفسر هذه الطبقة من الدوافع التي ترسب في قرارة النفس عند الشاعر الخلاق ^(١) .

ولست أستطيع أن أترك الأحلام النمطية بموت الأقرباء المحبين دون أن أضيف بضع كلمات أوضح بها دلالة هذه الأحلام بالنسبة إلى نظرية الحلم عامة . فهذه الأحلام تظالنا بوضع لم نألّفه قط ، وهو أن فكرة الحلم التي أملتها الرغبة المكبوتة تفلت من كل رقابة وتظهر في الحلم من غير ما تحريف . فلا بد أن تكون هناك شروط خاصة تجعل ذلك أمراً ممكناً . وأعتقد أن العاملين الآتيين هما اللذان يعينان على وقوع هذه الأحلام :

(١) [١٩١٩ :] هذه الإشارات إلى فهم تحليل نفسي لهاملت قد أنماها إرنست جينز بعد ذلك ودافع عنها (أنظر جينز ١٩١٠ أ) . [١٩٣٠ :] هذا ولقد انتهيت في هذه الأثناء إلى شك مطلق في صحة المسئلة المتضمنة في هذا الكلام ، وهي أن يكون مؤلف أعمال شكسبير هو الرجل المولود في ستراتفورد . [١٩١٩ :] ويجد القارئ محاولات أخرى في تفسير ماكبث في مقال (١٩١٦ ج) وكذلك في مقال آخر بقلم يكلنز (١٩١٧) .

العامل الأول هو أننا نعتقد أن هذه الرغبة أبعد ما تكون عنا ، أنها « لا تخطر لنا ولو في الحلم » ، ولهذا ظلت الرقابة على الحلم غير معدة لمواجهة هذه الشناعة ، على نحو ما ظلت شرائع صولون من غير نص على عقاب من قتل أباه . والعامل الثاني هو أنه يكثر بنوع خاص في هذه الحالة أن يذهب إلى لقاء تلك الرغبة الممنوعة غير المتوقعة أثر من اليوم السابق في صورة القلق على حياة شخص عزيز : هذا القلق لا يستطيع أن ينفذ إلى الحلم إلا إذا استغل تلك الرغبة التي تلتقي به في منتصف الطريق ، بينما تستطيع تلك الرغبة من ناحيتها أن تتقنع بقناع ذلك القلق الذي اختلج في أثناء النهار . فإن ارتأى البعض أن الأمر أبسط من ذلك كثيراً وأن الأمر لا يعدو أننا نتابع في الليل وفي أحلامنا ما شغلنا به في نهارنا ، فإن صاحب هذا الرأي يترك الحلم بموت الأحياء من غير رباط يجمعه بنظرية الحلم عامة ، وهو بذلك يتشبث من غير داع بلغز يقبل الحل كل القبول . ومن المفيد كذلك أن نتأثر علاقة هذه الأحلام بأحلام الهيلة . فإن الرغبة المكبوتة قد تمكنت في الأحلام التي يموت فيها من نجب من أن تجد وسيلة تفلت بها من الرقابة ومن التشويه الذي تفرضه هذه الرقابة ، ولا يكون ذلك دون أن يستشعر الحالم في أحلامه مشاعر أليمة . وأحلام الهيلة إنما تنشأ على هذا النحو عينه حين تكتسح الرقابة اكتساحاً شاملاً أو جزئياً - هذا من جهة - ، بينما نجد - من جهة أخرى - أن اكتساح الرقابة يسهل حين تكون الهيلة قائمة بالفعل في صورة إحساس خامد ناشط منبعث من مصادر جسمية [أنظر ص ٢٥٤] . وهكذا يتضح كل الوضوح أى غرض تقوم الرقابة من أجله بوظيفتها ، ولأى غرض تشوه الحلم : ذلك لكي تحول دون تمخض الهيلة وغيرها من الحالات الوجدانية الأليمة .

* * *

لقد تحدثت فيما سبق [أنظر ص ٢٦٧] عن أنانية النفس الطفلية . وأردف الآن - لكي أشعر بالصلة - أن الأحلام كذلك تتسم بهذا الطابع عينه . فالأحلام في جملتها على أنانية مطلقة ، والأنا المحبوب يظهر فيها جميعاً وإن تقنع . والرغبات التي تتحقق فيها من غير استثناء ورغبات هذا الأنا عينه . وإذا لاح أن الاهتمام بالغير قد أثار حلماً ، فما ذلك إلا مظهر خادع . وهأنذا أحلل بضعة أمثلة تبدو مناقضة لما أقول .

روى طفل لم يبلغ الرابعة : أنه رأى طبقاً كبيراً ازدهم بالخضر وعلته شريحة كبيرة من اللحم المشوى . ابتلعت الشريحة دفعة واحدة دون تقطيع . لم ير الحالم من أكلها (١) .

من هو يا ترى هذا الشخص المجهول الذى أتخفه حاملنا الصغير بتلك الشريحة الفاخرة ؟ لا شك فى أن خبرة اليوم السابق تلتقى الضوء على ذلك : فالطفل كان منذ بضعة أيام لا يفتدى إلا باللبن خضوعاً لأمر الطبيب ، وهو بالأمس قد جاوز الحد فى « الشقاوة » فكان عقابه الحرمان من وجبة العشاء . ثم إنه كان ذا خبرة سابقة بعلاج الحمية هذا وأظهر فى احتماله شجاعة كبيرة : كان يعرف أنه لن يحصل على شيء من الطعام ولكنه لم يكن يبيع لنفسه أقل إشارة إلى جوعه ، ولو بكلمة واحدة . والتربية إذن كانت قد أخذت تحدث أثرها فيه . وإنما لتفصح عن نفسها فى هذا الحلم الذى تظهر فيه بواكير التشويه . فلا شك فى أنه هو هذا الشخص الذى تتجه رغائبه إلى مثل هذه الوجبة الحافلة - وأى وجبة ! وجبة من اللحم . ولكنه وهو يعلم أن ذلك محرم عليه لا يجرؤ على الجلوس إلى المائدة كما يفعل الأطفال الجائعون فى أحلامهم (أنظر حلم ابنتى الصغيرة آنا بالكريز ، ص ١٥٥) . وهكذا يظل الآكل مجهولاً .

حلمت مرة أننى أرى فى واجهة إحدى المكتبات مجلداً جديداً من إحدى هذه السلسلات التى اعتدت شراءها والتى تنشر من أجل الهواة فى موضوع بعينه (كبار الفنانين ، تاريخ العالم ، أشهر المدائن . ، الخ .) . وكان عنوان السلسلة الجديدة هو

(١) إن ما يظهر فى الحلم من ضخامة الأشياء وكثرة مقاديرها ومن المبالغة بوجه عام أمر يمكن اعتباره خاصة أخرى من الخصائص الطفلية . فليس بين رغبات الطفل ما هو أشد من رغبته فى أن يصير كبيراً وفى أن يجوز من كل شيء مقداراً يحوزه الأكبون . والطفل صعب الإرضاء ، لا يعرف القناعة ولا يشبع من الإلحاح فى تكرار تلك الأشياء التى سر بها أو أعجبه مذاقها . والتربية وحدها هى التى تعلمه الاعتدال والقناعة والتزول عن رغبته . ومن المعروف أن المصابين كذلك ينزعون إلى الإغراب ومجانبة الاعتدال .

« أشهر الخطباء » أو « الخطب » ، وكان أول مجلداتها يحمل اسم الدكتور ليشر .

عندما أخذت أحلل هذا الحلم بدا لي أمراً بعيداً عن الاحتمال أن أشغل في أحلامي بشهرة الدكتور ليشر ، هذا المتحدث الذى لا يفرغ من الكلام باسم المعارضة الألمانية في البرلمان . وحقيقة الأمر هى أننى قد أخذت من أيام قلائل فى علاج بعض المرضى الجدد ، وهكذا أصبحت اليوم مضطراً إلى التحدث عشر ساعات أو إحدى عشرة ساعة فى اليوم . فأنا أيضاً متكلم لا يفرغ .

٣

وحلمت فى مرة أخرى أن بعض معارفى من أعضاء هيئة التدريس يقول : يا بنى ، ضيف النظر . ثم يعقب ذلك حوار مؤلف من جمل قصيرة وردود عليها . ولكن هذا الحوار قد أعقبه أيضاً جزء ثالث من الحلم أظهر فيه أنا وأبنائى ، وليس الأستاذ م . وابنه - من حيث يتصل الأمر بالمحتوى الكامن للحلم - إلا شبحين قصد بهما إلى تغطيتى أنا وابنى الأكبر . وسأعود إلى هذا الحلم مرة ثانية لخاصة أخرى فيه [ص ٤٤٠ وما بعدها] .

٤

ويضرب لنا الحلم الآتى مثالا على مشاعر أنانية خسيصة استترت وراء قلق رؤوف : يبدو صديق أوتو معتل الصحة ؛ فوجهه مسود وعيناه جاحظتان .

إن أوتو طيب أسرقى ودينى نحوه يفوق كل ما أطمع فى أن أجزيه به ؛ فهو يسهر على صحة أبنائى منذ سنوات ويعالجهم فى مرضهم علاجاً شافياً ، وهو بعد هذا كله لا يدع فرصة تمر دون أن يهدى إليهم شيئاً . [أنظر ص ١٤٤ .] واتفق أنه زارنا فى يوم الحلم ولاحظت زوجى أنه يبدو متعباً مستنفد القوى . وفى الليل أحلم به وأعزو إليه فى الحلم بعضاً من أعراض مرض بازدوف . إن من يتعرض لتفسير هذا الحلم غير ملتفت إلى قواعدى سوف يخلص إلى أننى كنت فى قلق على صحة صديق وأن هذا القلق يتحقق فى الحلم . والحلم إذن لا ينقض رأبى فى أن الأحلام تحقق رغبات وحسب ، إنه ينقض

كذلك قضيتى الأخرى : أن الأحلام لا تعرف غير الدوافع الأنانية . ولكن هلا بين لي من أخذ بهذا التفسير لم خشيت على أوتو من مرض بازدوف — وهو تشخيص ليس في مظهر أوتو الحقيقي أقل دليل عليه ؟ إن تحليلي يمدني بالمادة الآتية التي ترجع إلى حدث وقع منذ ست سنوات خلت : كنا صحبة صغيرة ضمت الأستاذ ر . وكنا نركب في حلقة الليل عربية بمجتاز غابة ن . الواقعة على مسيرة ساعات من المكان الذي كنا نصيف فيه ، وفجأة قذف السائق — وكان ثملاً بعض الشيء بالعربة وبمن فيها في منحدر كان هناك ، ولولا حسن الحظ ما خرجنا جميعاً سالمين . غير أننا اضطررنا إلى أن نقضى الليل في نزل قريب بلغته أنباء حادثتنا فأدرت علينا عطفاً كثيراً . وجاء سيد يحمل علائم لا نخطئ على مرض بازدوف — وكانت على التحديد اسودادا في بشرة الوجه مع جحوظ العينين ولكن بغير تضخم الغدة الدرقية كما هو الحال في الحلم تماماً — جاء يضع نفسه بكليته تحت تصرفنا ويسأل هل يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلنا . فأجابه الأستاذ ر . بطريقته الحاسمة : لا شيء إلا أن تقرضني قميصاً للنوم . وهنا أجابه رجلنا النبيل قائلاً : « إني آسف ، ولكن هذا هو مالا أستطيعه » ثم بارح الحجرة .

ولما تابعت تحليلي خطر لي أن بازدوف ليس اسم طبيب وحسب بل هو أيضاً اسم مرب معروف . (ولست أتق الآن وأنا مستيقظ من صحة هذه المعرفة ^(١)) . ولكن صديقي أوتو هو هذا الشخص الذي رجوت منه أن يعنى إذا ما أصابني مكروه بالترية البدنية لأبنائي ، وبخاصة في سن المراهقة (ومن هنا قميص النوم) . وأنا — إذن — إذ أرى صديقي أوتو في الحلم بأعراض صاحبنا ذى المروءة أهدف صراحة إلى أن أقول : لو أن مكروهاً أصابني لأبدي من العون مثل ما أبداه البارون ل . في هاتيك المناسبة رغم عروضة السخية . ولعل في ذلك ما ينشر طية الأنانية في هذا الحلم ^(٢) .

(١) [الواقع أنها معرفة صحيحة ؛ فبازدوف رجل من كبار رجال التربية في القرن الثامن عشر .]
 (٢) [هامش وضع عام ١٩١١ :] كان إرنست جوزف يلقى في جمعية أمريكية محاضرة علمية عن أنانية الحلم حين نهضت سيدة مثقفة تعترض على هذا التعميم غير العلمي قائلة : إن مؤلف هذا الكتاب لا يستطيع إلا أن يحكم على أحلام النمسويين ، وليس له أن يتحدث عن أحلام الأمريكيين . وهي واقفة فيما يتعلق بها من أن جميع أحلامها غيرية خالصة .

[١٩٢٥ :] ويجعل بنا أن نصيف على سبيل المذرة لهذه السيدة الوطنية أن من الواجب علينا ألا نخطئ . فهم القضية القائلة بأن الأحلام أنانية على الإطلاق — لأنه إذا كان كل ما يطرأ على التفكير القبشعوى يمكن الورد في الحلم (سواء في محتواه الظاهر أم بين أفكاره الكامنة) ، فإن هذه الإمكانية تظل قائمة كذلك بالنسبة

ولكن أين تحقيق الرغبة ؟ إننا لا نجد في الانتقام من صديق أوتو الذى قدر عليه - فما يبدو - أن تساء معاملته في أحلامي ، بل في الملابس الآتية : إذا كنت قد صورت أوتو في صورة البارون ل . فإني بهذا عينه أكون قد عينت شخصي أنا بآخر غيره ، وأعنى به الأستاذ ر . ؛ فأنا أيضاً قد طلبت من أوتو طلباً مثلماً فعل الأستاذ ر . مع البارون ل . إبان تلك الحادثة . وهنا بيت القصيد : فالأستاذ ر . - وهو الذى ما كنت لأجرؤ في الحقيقة على أن أقارن نفسي به لولا ذلك - قد شق أيضاً طريقة بعيداً عن العالم الأكاديمي ولم يحصل إلا بعد عمر طويل على لقب الأستاذية الذى كان يستحقه منذ أمد بعيد . وأنا إذن أبتغي مرة أخرى أن أصبح أستاذاً . لا ، بل إن هذه الكلمات ذاتها : « بعد عمر طويل » لتحقق هي أيضاً رغبة ؛ لأنها تعنى أننى سأعيش حتى أرى بنفسى أولادى وهم في سن المراهقة .

وهناك أنواع أخرى من الأحلام النمطية^(١) يطير فيها المرء مسروراً أو يسقط وهو يشعر بالهيلة : هذه أحلام ما عرفها قط بخبرة شخصية وكل ما أستطيع قوله عنها إنما أستمدته من التحليلات النفسية التى أجريتها . والدروس التى يتلقاها المرء من هذه التحليلات تلجئه إلى النتيجة الآتية : أن هذه الأحلام أيضاً تعيد انطباعات من انطباعات الطفولة ، إنها تتعلق على التحديد بألعاب حركية تجتذب الأطفال اجتذاباً فائقاً . فمن هو هذا العم الذى لم يُعَين طفلاً على الطيران بأن يهرول به باسط الذراعين عبر الغرفة ، أو لم يتخذ من السقوط مادة للملاعبة ، فيجلسه على ركبته ثم يمد ساقه فجأة أو فيرفعه عالياً ثم يهوى إليه بحركة مباغته أنه يتخلى عنه ؟ والأطفال حينئذ يصيحون طرباً ولا يكون من استعادة هذه الألعاب ، وبخاصة إذا احتوت على ما يحدث بعضاً من الخوف أو الدوار . وإنهم ليستعيدونها في أحلامهم بعد أن تمضى بهم السنون ، سوى أنهم يحذفون من الحلم اليد التى تمسك بهم بحيث يبدون اليوم كمن يطيرون أو يسقطون أحراراً . وولع الأطفال بأمثال هذه الألعاب - كولهم بالأراجيح بأنواعها - أمر معروف . فإذا رأوا في « السيرك » بعض الأفانين البهلوانية جدد ذلك عندهم ذكرى هذه الألعاب^(٢) . وقد لا تخرج

= إلى الدوافع الغيرية . وعلى هذا النحو عينه يستطيع دافع من العطف أو العشق تجاه شخص آخر أن يظهر في الحلم إذا كان قائماً في اللاشعور . وعلى هذا ينحصر صدق القضية الموردة في النص في كوننا نجد في أحيان كثيرة جداً بين الحوافز اللاشعورية إلى الحلم نوازع أنانية يلوح في حياة اليقظة أننا قد تغلبنا عليها .

(١) [يلحظ القارئ ههنا المفاجأة في الانتقال من أحلام موت الأحباء إلى أنواع أخرى من الأحلام

النمطية - وهو ما جعل ستراشي يضيف في هذا الموضوع عنواناً جديداً .]

(٢) [١٩٢٥ :] لقد أرانا البحث التحليلي أن هناك عاملاً آخر - عدالة المحسة في الأعضاء ذاتها - يدفع إلى ولع =

النوبات المستيرية عند الصبية عن أن تكون استحضاراً يتأدى في مهارة بالغة لأمثال هذه الأفانين . كما أنه لا يندر أن تنبه هذه الألعاب الحركية - وإن كانت بريئة في ذاتها - مشاعر جنسية^(١) . وإذا جاز لي أن أستخدم تعبيراً دارجاً اعتدنا أن نطلقه على هذا النشاط بكافته ، قلت : إن « هيجان » الأطفال هو ما يستعاد في أحلام الطيران والوقوع والتأرجح وما شابهها استعادة تنقلب في خلالها اللذة إلى هيلة . ولكن هياج الأطفال كثيراً ما ينتهي في الواقع كذلك بالشجار وبالدموع - كما تعرفه كل أم .

وأنا - إذن - أملك أسباباً طيبة أستبعد على أساسها النظرية القائلة : إن أحاسيسنا الليلية في أثناء النوم وكذلك الإحساس بحركة الرثتين وما أشبه - هي التي تبعث على أحلام الطيران والسقوط [أنظر ص ٧٥] ، بل في رأيي أن هذه الأحاسيس ذاتها إنما تستحضر باعتبارها جزءاً من مقومات الذكري التي يرتد إليها الحلم ، أي أن هذه الأحاسيس جزء من محتوى الحلم وليست مصادر له .

ولكنني لا أخفي عن نفسي بحال من الأحوال قصورى عن الإتيان بتفسير كامل لهذه الطائفة من الأحلام النمطية ؛ فالمادة التي عندي تركني حائراً في هذه المسألة بالذات . إلا أنني - على أية حال - لا أرى بداً من الاستمسك بوجهة النظر العامة هذه : أن جميع الإحساسات الليلية والحركية المتضمنة في هذه الأحلام إنما تستدعى على الفور كلما احتاج إليها دافع نفسى ما ، وأن من الممكن إغفالها إذا لم تكن هناك مثل هذه الحاجة [أنظر ص ٢٥٦ .] وكذلك العلاقة بين هذه الأحلام وخبرات الطفولة : إنها تبدو لي أمراً تقطع به الدلائل المتجمعة عندي من تحليل العصبيين . فأما ما هي سائر المعاني التي تجيء في سياق الحياة فترتبط بذكرى هاته الإحساسات - وأرجح أن هذه المعاني

= الأطفال بالحركات البهلوانية وإلى استعادتهم إياها في النوبات المستيرية ، هذا العامل الآخر هو صورة ذكورية (يكثر أن تكون صورة لاشعورية) عن جماع لوحظ (بين الإنسان أو الحيوان) .

(١) تحدث إلى في هذا الصدد زميل شاب خلا من كل أثر من الاضطراب العصبي فقال : « أعلم من خبرتي الشخصية أنني وأنا طفل كنت أستشعر إحساساً معيناً في أعضائي التناسلية عند ما أخذ في التأرجح ، وحين تبلغ الحركة الهابطة حدها الأدنى . وإلى وإن كنت لا أستطيع أن أقول : إنني كنت أسر بهذا الإحساس ؛ إلا أنني لا أجد بداً من وصفه بأنه كان إحساساً لذيذاً » . - وكثيراً ما سمعت من المرضى أن أولى انتصابتهم المصحوبة باللذة والتي يستطيعون تذكرها قد أتتهم في صباهم وهم يتسلقون - كما أنه يشبت من التحليل النفسى ثبوتاً لا يتطرق إليه الشك أن الدفعات الجنسية الأولى كثيراً ما تتأصل جذورها في ألعاب المناوشة والمصارعة التي تقع في سنى الطفولة .

تختلف باختلاف الأفراد مهما كان من ظهور هذه الأحلام على نحو نمطى - فذلك ما لا أعرف الجواب عنه ، وكم كنت أود لو كان فى استطاعتى أن أسد هذا النقص بتحليل بعض الأمثلة البينة تحليلاً دقيقاً . فإن عجب البعض إذ يرانى أشكو نقص المادة فى هذا الصدد وليس أكثر من هذه الأحلام على التحديد - أحلام الطيران والسقوط ووقوع الأسنان ، الخ . - أجبته بأن مثل هذه الأحلام لم تقع لى قط منذ أن وجهت انتباهى إلى موضوع تفسير الأحلام . وأما أحلام العصائيين فلا يسعنا دائماً - أو على الأقل لا يسعنا كثيراً - أن نمضى فى تحليلها إلى غاية معناها الخبيء ؛ فهناك قوة خاصة - قوة كان لها نصيبها فى تكوين العصاب أصلاً وتتحرك إلى العمل حين نتعرض لحله - تحول دون تفسير الحلم حتى لغزه الأخير .

(ج) أحلام الامتحان

إن كل من اجتاز امتحان البكالوريا فى ختام الدراسة الثانوية يشكو من إلحاح هذا الحلم من أحلام الهيلة فى ملاحظته : أنه قد رسب فى الامتحان ، أو أنه مضطر إلى إعادته من جديد ، الخ . وأما الذين حصلوا على درجة جامعية فيحل عندهم محل هذا الحلم النمطى حلم آخر يخيل إليهم أنهم قد رسبوا فى امتحان الإجازة الجامعية ، وهو ما يعترضون عليه سدى وهم ما زالوا نياماً محتجين بكونهم يعملون منذ سنوات كأطباء أو محاضرين بالجامعة أو رؤساء أقلام : تلك ذكريات لا تُجْتَدَرُ عن ألوان من العقاب لقيناها فى طفولتنا جزاء على سوء فعالنا ، ذكريات تبعث فى نفوسنا من جديد رابطةً نفسياً بهاتين اللحظتين الحاسمتين فى تاريخ حياتنا المدرسية ، « يوم الغضب ، ذاك اليوم » (١) ، يوم نمتحن أعسر امتحانين . وإلى هذه المخاوف الطفلية عنها يرجع اشتداد « هيلة الامتحان » عند العصائيين . فنحن بعد أن نفرغ من مرحلة التلمذة لا نرجع نلقى عقابنا على يد آبائنا أو أولياء أمورنا أو المدرسين من بعدهم ، وإنما يتكفل بتربيتنا فى مستأنف السنين هذا الرباط العلى الذى لا يرحم بين أحداث الحياة الواقعة . وها نحن أولاء

(١) ["dies irae, dies illa" مطلع صلاة منشورة لا ترددها الكنيسة إلا يوم يموت أبناؤها . وهى تصف ساعة البعث للامتحان الأخير : " . . . الطبيعة والموت سوف يروعان يوم يقف الإنسان ليواجه القاضى الأعلى " - وإن انتهت بالإعراب عن الأمل فى حسن وساطة المسيح .]

نحلم اليوم بامتحان البكالوريا أو الإجازة الجامعية - ومن ذا الذى لم يرتعد إذ ذاك ولو كان مستعداً؟ - كلما ارتكبنا خطأ أو قصرنا في أمر فخشينا أن تأتي العاقبة بالعقاب ، أى كلما شعرنا بوطأة المسؤولية .

ولأحلام الامتحان تفسير أعمق أدين به للملاحظة لاحظها أحد الزملاء المحنكين (وهو شتيكل) إذ أعلن مرة في اجتماع علمي أن الحلم بامتحان البكالوريا لا يأتي - بقدر ما يعلم - إلا الذين اجتازوا هذا الامتحان بنجاح ، ولا يأتي أبداً أولئك الذين أخفقوا فيه . وهكذا يلوح أن أحلام الامتحان المصحوبة بالهيلة - وهي التي يثبت بالملاحظة تلو الملاحظة أنها تأتي المرء حين تنتظره في الغد مسئولية يخشى الإخفاق فيها - يلوح أنها تتلمس مناسبة ماضية لم تجد فيها الهيلة الشديدة ما يبررها بل جاءت الحوادث بما يكذبها . وإذا كان الأمر كذلك ، كان هذا مثالا عجبياً على الخطأ الذي تقع فيه إذ نفهم محتوى الحلم بوساطة النظام المستيقظ [أنظر ص ٢٦١] . فما نعده احتجاجاً على الحلم : « ولكنني طيب بالفعل ، الخ . » هو في الحقيقة العزاء الذي يحمله الحلم ، عزاء يخلق بنا أن نقرأه على هذا النحو : « لا تخش من الغد شيئاً ، أنظر أى هيلة تملكك قبيل امتحان البكالوريا ، ومع هذا لم يمسك شيء ، وها أنت ذا اليوم طيب بالفعل ، الخ . » وأما الهيلة التي نغزوها إلى الحلم فقد تولدت في الحقيقة من بقايا اليوم السابق .

وإن المحاولات التي استطعت إتيانها للتثبت من صحة هذا الرأي عندي وعند غيري - وإن لم تكن كثيرة العدد الكافية - قد أيدت صدق هذا الرأي . فأنا - مثلاً - قد رسيت في امتحان البكالوريوس في مادة الطب الشرعي ، ولم يحدث قط أن امتحنتي الحلم مرة ثانية في تلك المادة على حين امتحنت كثيراً في علوم النبات أو الحيوان أو الكيمياء ، وهي مواد كنت أذهب للامتحان فيها وبني هيلة كانت لها أسباب وجية ولكنني كنت أفلت من العقاب سواء بفضل الحظ أو بفضل المتحنيين . وأما في الأحلام المتصلة بامتحانات الدراسة الثانوية فأراني أمتحن دائماً في مادة التاريخ وهي مادة نجحت فيها نجاحاً باهراً - وإن رجعت الفضل في ذلك إلى أن أستاذي ذا القلب الرحيم (غائثي ذو العين الواحدة في حلم آخر ، ص ٥٦) لم يفته أن يلحظ أنني حين أعدت ورقة الأسئلة إليه قد أعلمت بإظفري ثاني الأسئلة الثلاثة المدونة فيها [للإجابة عنها شفهاً] تنبيهاً له (١٩)

إلى أنه لا داعى إلى الإلحاح فى هذا السؤال . وأعرف مريضاً من مرضى عدل عن دخول امتحان البكالوريا فى المرة الأولى ثم عاد بعد ذلك فأداه بنجاح ، ولكنه أخفق فى امتحان الكلية الحربية ولم يفلح قط فى أن يكون ضابطاً : هذا المريض يخبرنى أنه يحلم فى أحيان كثيرة بالامتحان الأول ولكنه لا يحلم أبداً بالثانى .

هذا ، ونحن نواجه فى تفسير أحلام الامتحانات تلك الصعوبة التى قلت من قبل [ص ٢٥٩] إنها خاصة من خواص غالبية الأحلام النمطية : فالمادة التى تزودنا بها مستدعيات الحلم لا تكفى فى تفسير الحلم إلا نادرا ، ولسنا نستطيع الوصول إلى فهم هذه الأحلام فهما أوفى إلا يجمع عدد ضخم من أمثلتها . ولقد انتهت منذ زمن غير بعيد إلى تلك النتيجة المستيقنة ، وهى أن قول الحلم : « ولكنك طبيب حقيقة ، الخ . » لا يضمم الغزاء وحسب ، بل هو يتضمن لوماً مؤداه : « إنك اليوم رجل كهل تقدمت بك السنون ، وأنت مع هذا لا تنقطع عن ذلك العبث الطفلى الأخرق » . وهذا المزيج من نقد النفس وتعزيتها هو الذى يعرب فى رأى عن محتوى الحلم الكامن . وعلى ذلك لن يكون أمراً عجباً إذا وجدنا أن ما يجيء فى الأمثلة التى حللناها أخيراً من لوم على « الحرق » و « العبث الطفلى » إنما يتعلق فى الحقيقة باستعادة أفعال جنسية محرمة .

ولقد كان من رأى شتيكل — وهو الذى أتى بأول تفسير لأحلام البكالوريا (١) — أن هذه الأحلام تلمح من غير استثناء إلى الامتحان الجنسى والبلوغ الجنسى . وكثيراً ما دعمت خبرتى صحة هذا الرأى .

(١) [« البكالوريا » فى الألمانية = Matura ، وهو من اللاتينية بمعنى « النضج » أو « البلوغ » .]